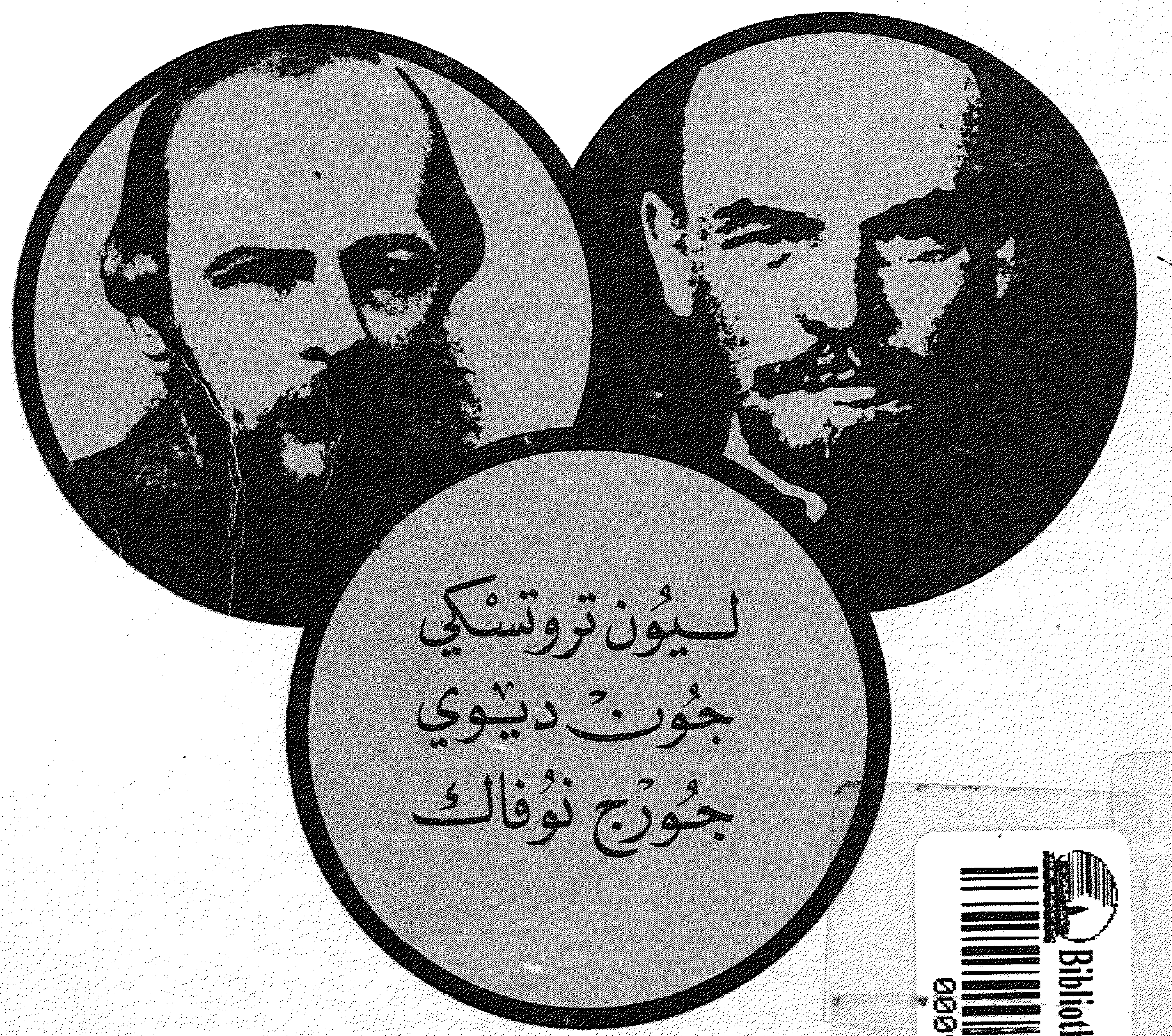
أخلاقهم وأخلاقنا

وجهتا النظر الماركسية والليبرالية في المثل الأخلاقية



ليون تروتسكي
جون ديوي
جورج نوفاك

ترجمة
سمير عبده

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



أخلاقهم وأخلاقنا

وجهتا النظر الماركسية والليبرالية في المثل الأخلاقية


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

أخلاقهم وأخلاقنا

وجهتا النظر الماركسية والليبرالية في المثل الأخلاقية

ليون تروتسكي
جون ديوي
جورج نوفاك

ترجمة
سمير عبده

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

مقدمة استهلالية

جورج نوفاك

لا يشغل بال الراديكاليين الجدد لفترة الستينات من المسائل، قدر ما تشغلهم مسألة العلاقة بين الأخلاق والسياسة. ترى هل يمكن لهذين الوجهين من الفعالية الانسانية ان ينسقا، أو أن من المحتم عليهما ان يظل كل منهما معادياً للآخر؟ إن سجل الستالينية الشائن وخضوع الاشتراكيين الإصلاحيين لسياسة الحرب الباردة في واشنطن، قد أدت بكثير من الثوريين الشبان الى الاعتقاد بأن النظرية الماركسية عاجزة عن حل هذه المعضلة. ولذلك فهم يبحثون في ميادين أخرى أملاً في العثور على جواب لهذه المشكلة المكدرة في النزعة السلمية والوجودية والأخلاقية المحضة والفعالية دون ايديولوجية أو منهاج، لا بل حتى بالارتداد الى الايمان الديني.

إن الصراع بين الأخلاق والسياسة ليس بالمشكلة الجديدة على الاطلاق. ففي عصرنا الراهن جرى النقاش حولها بضراوة حيثما كان، وفي الوقت الذي جوبه فيه الناس بمهام عاجلة تتعلق بالثورة السياسية وإعادة البناء الاجتماعي. وقد كان الجدل حول المسألة في غاية الحدة، في النصف الأخير من فترة الثلاثينات. وبإمكان الجيل الجديد أن يتعلم الكثير من المناقشات التي جرت بين الليبراليين والإصلاحيين والثوريين في تلك الفترة.

إن بإمكانهم العثور على قضايا أساسية تتعلق بالمجابهة بين الليبرالية والستالينية والماركسية فيما يختص بالأخلاق والسياسة، وهي قضايا طرحت بإسهاب في هذه المقالات .

وهي تنشر في هذا الشكل في وقت مناسب جدا. فشهر آب من عام ١٩٦٦ يصادف العيد الثلاثين لمحاكمات موسكو الأولى المشينة التي جرت في الفترة الواقعة بين عام ١٩٣٦ و١٩٣٨. كما يصادف هذا التاريخ الذكرى السادسة والعشرين لاغتيال تروتسكي في مكسيكو عام ١٩٤٠. إن هاتين الحادثتين متصلتان مباشرة. فاغتيال تروتسكي من قبل أحد عملاء ستالين، مثل تنفيذ حكم الإعدام الذي حكم به على الثوري المنفي في محاكمات موسكو .

إن تدهور الثورة الروسية في ظل الحكم التوتاليتاري للبيروقراطية السوفيتية قد تجلى بأشد صورة دراماتيكية بادانة وإعدام جميع أعضاء مكتب لينين السياسي، باستثناء ستالين نفسه. ولم تثر المحاكمات وعمليات التطهير الدموية التي تناولت ملايين الناس، الفزع فحسب، بل أثارت لدى العديد من الأوساط الشكوك حول المؤهلات الأخلاقية للماركسية والبلشفية.

وقد قامت جماعة كبرى تضم عددا من الراديكاليين والشيوعيين السابقين بإدانة الماركسية الثورية مع نقيضتها ومخربتها الستالينية، باسم المبادىء الأخلاقية العالمية. ومن أبرز هؤلاء في الولايات المتحدة ماكس ايستمان ويوجين ليونز، وسيدني هوك ونورمان توماس .

وبالاضافة الى الدفاع عن شرفه وحياته كثوري ضد اتهامات موسكو الباطلة، اضطر تروتسكي الى الدفاع عن مراكز الماركسية المحصنة، وتبريرها في المسائل التي تتعلق بالأخلاق ضد هجمات جميع هؤلاء الخصوم .

وقد فعل ذلك في مقاله الشهير : أخلاقهم وأخلاقنا، الذي ننشره في مطلع مجموع المقالات هذه . وقد ظهر هذا المقال لأول مرة بالانكليزية في نشرة الأممية الجديدة New International عدد شباط ١٩٣٨، وهذه المعالجة لمشكلة الغاية

والوسيلة في العمل الجماعي والسلوك الفردي، تعتبر من أثمن اسهامات تروتسكي في النظرية الماركسية. وقد كرست في ذكرى ليون سيدوف، ولده البالغ ٣٢ عاماً، والذي توفي بأحد مستشفيات باريس في ظروف غامضة، بينما كان تروتسكي يكتب هذا الكراس. وثمة دلائل مقنعة للاعتقاد بأنه، مثله مثل آلاف أتباع تروتسكي في ذلك الوقت، قتل بناء على أوامر بوليس ستالين السري.

وبعد عام ونصف عاد تروتسكي الى الموضوعات نفسها عندما أجاب على ناقديه بمقال تحت عنوان: الأخلاقيون والمنافقون ضد الماركسية. إن هذين المقالين يشكلان وحدة في الواقع.

وقد كتب المفكر والمربي الأمريكي الشهير جون ديوي* بعد قراءة مقال تروتسكي الأصلي، تحليلاً نقدياً لآرائه من وجهة نظر فلسفته الوسلية instrumentalist. وفي شهر آب عام ١٩٣٨ نشر مقاله (الوسائل والغايات) في النيو انترناشيونال.

هذا وقد قام ديوي بمهمة رئيس لجنة التحقيق الدولية في محاكمات موسكو، وهي اللجنة التي اتجهت الى مكسيكو في نيسان من عام ١٩٣٧ لكي تأخذ شهادة تروتسكي، حول الاتهامات التي وجهت ضده وضد سيدوف في محاكمات موسكو. وفي تشرين الأول من العام نفسه قدمت اللجنة مطالعتها القائلة بأن محاكمات ستالين كانت ملفقة، وان تروتسكي وابنه كانا بريئين كليا من الجرائم المريعة التي نسبت إليهما في الاتهامات والاعترافات التي انتزعت بالقوة.

ومنذ خطبة خروتشوف السرية الشهيرة حول جرائم ستالين في المؤتمر

---

* يعتبر جون ديوي (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) الفيلسوف الأمريكي من الفلاسفة القلائل الذين كان لهم تأثير كبير في الشؤون العملية. إنه يميل الى ان يستبدل بالسؤال القائل (ما هي النتيجة الصادقة ؟) سؤالا آخر يقول (ما هي النتيجة التي (ينبغي) ـ اذا وضعنا في اعتبارنا ظروف المشكلة التي كانت مثارا لتفكيرنا على الاطلاق ـ أن ننتهي اليها ؟). مشكلة القيمة اذن هي موضع اهتمامه الرئيسي في كل ما كتب، وليس مما يثير الدهشة أن فلسفته قد انتهت به الى أفكار ثورية بصدد العملية التربوية، فقد كان البرنامج الذي وضعه ديوي للتربية التقدمية نتيجة طبيعية لفلسفته ككل. (المترجم).

العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في شباط من عام ١٩٥٦، دلل خلفاء ستالين بطريقتهم الخاصة على صحة مطالعات لجنة ديوي قبل عشرين عاماً . وباستثناء بعض المتعصبين الستالينيين، يقبل المطلعون على السياسة داخل وخارج الحركة الشيوعية في العالم، يقبلون الآن في الحقيقة القائلة إن محاكمات موسكو كانت تزييفاً للعدالة وانها لوثت قضية الاشتراكية بالدم .

وقد توقع ديوي ان يتلقى جواباً على تحديه من تروتسكي، غير ان هذا المنفي المعذب لم يستطع أن يستأنف المناقشة في الوقت القصير الذي سبق مصرعه .

ونظراً لأن المناظرة بين الطرفين لم تتم، قمت في الذكرى الخامسة والعشرين لاغتيال تروتسكي، بمراجعة مختلف جوانب الحوار حول هذه المسألة بين مختلف مدارس الفكر المتصارعة. وقد نشر مقال (الأخلاق الليبرالية) الذي نختتم به مجموعة المقالات هذه، في خريف عام ١٩٦٥، في الانترناشيونال سوسشياليست ريفيو In-ternational Socialist Review . إن هذه المقالات الأربعة ستساعد على ايضاح الوسائل المختلفة والآراء المستخدمة من قبل الليبرالية والماركسية في معالجة مستويات الأخلاق، وبخاصة في تطبيقها على مشكلات العمل السياسي والتغير الاجتماعي الذي يبدي الراديكاليون الجدد وآخرون غيرهم اهتماماً بها في هذه الأيام .

آب سنة ١٩٦٦

في ذكرى ليون سيدوف
١٩٠٦ - ١٩٣٨

المقدمة

خلال الأعوام التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، ظهرت طائفة جديدة من نقاد الماركسية الثورية، انطلقت من منطلق الأخلاقية. ويمثل هؤلاء ماكس ايستمان ونورمان توماس ويوجين ليونز وسيدني هوك في الولايات المتحدة، وبوريس سوفارين ومارسيو بيفر في فرنسا. وقد تضخمت هذه الجوقة بانضمام مجموعة ذي نيشن The Nation والـ New Republic التي بعد أن سحبت دعمها وتأييدها لجرائم الستالينية ومحاكمات موسكو واسبانيا، ما لبثت ان انتقلت الى القول بأن الستالينية وبلشفية لينين وتروتسكي متساوية في لا أخلاقيتها. هذه الأصوات كانت لفترة من الزمن عوناً لنقد الثورة الاجتماعية باسم (الأخلاقية العالمية).

وقد تعرض تروتسكي لهؤلاء في مقاله : أخلاقهم وأخلاقنا، الذي نشر في امريكا في عام ١٩٣٨ بمجلة نيو انترناشيونال (الأممية الجديدة) وفي فرنسا بكراس مستقل. وبعد مضي عام ونصف كتب تروتسكي مقاله: الأخلاقيون والمنافقون ضد الماركسية، اعتبره تتمة لمقاله الأصلي، وعلى ذلك فها نحن ننشر المقالين معا في ترجمة مراجعة.

لقد أثبت التاريخ أن رأي تروتسكي في ان محاولة الأخلاقيين (تحسين) الماركسية بوضع كوابح أخلاقية على جميع الطبقات، كانت في الواقع خطوة من

قبلهم نحو معسكر الطبقة الرأسمالية. وقد تحول جميع الأخلاقيين منذ ذلك الوقت، دون استثناء تقريباً ، الى مؤيدين للأمبريالية الديمقراطية بعد ان أعاد الكثيرون منهم النظر في فكرتهم التي تقوم على اعتبار الستالينية والتروتسكية توأمين، وذلك في صالح فكرة ستالين ديمقراطي. إن نقدهم (الأخلاقي) للبلشفية قد أصبح كما هو الأمر بالنسبة لنقد ايستمان وهوك (الفلسفي) للديالكتيك الماركسي ، جسراً عبروا فوقه عائدين الى معسكر الامبريالية. وان لا أخلاقيتهم متعفنة حتى النخاع .

إن هذا الكراس الذي كتب في معرض المحاورة، هو دون ريب أحد إسهاماته الخالدة في الماركسية. إنه أول عرض منهجي لفكرة الماركسية في العلاقة بين الغايات والوسائل كعلاقة داخلية ديالكتيكية. ومن الواجب ان يضع حداً، بالقدر الذي يدركه الطلبة الشرفاء، لأسطورة (لا أخلاقية) البلشفية والادعاءات الأخلاقية لدى نقادها من البورجوازيين الصغار .

أخلاقهم وأخلاقنا

ليون تروتسكي*

الأخلاق الطوباوية

خلال حقبة من رد الفعل الظافر، بدأ السادة الديمقراطيون والديمقراطيون الاشتراكيون والفوضويّون وممثلون آخرون عن (المعسكر اليساري)، بإفراز ضعف كميتهم المعتادة من الأخلاق الطوباوية، أشبه شيء بأشخاص يتعرقون في حالة الخوف ضعف ما يتعرقونه عادة. ولا يخاطب هؤلاء الأخلاقيون وكأنهم يشرحون الوصايا العشر او موعظة الجبل الى الرجعية المنتصرة، قدر ما يخاطبون اولئك الثوريين الذين يعانون من اضطهادها، والذين يثيرون الرجعية ويعطونها تبريرها الخلقي، (بتطرفهم) وبمبادئهم (اللا أخلاقية). وأكثر من ذلك، فإنهم يصفون وسيلة بسيطة ولكنها مضمونة لتجنب الرجعية: إن من الضروري ان يناضل المرء وأن يجدد نفسه خلقياً. وهناك عينات مجانية للكمال الخلقي تقدمه جميع مكاتب النشر المعنية لهؤلاء الراغبين.

إن الأساس الطبقي لهذه الموعظة الفخمة والزائفة، هو البورجوازية الصغيرة المثقفة، والأساس السياسي هو عجزهم واضطرابهم في وجه الرجعية المتقدمة.

* يراجع الفصل الثاني للتعريف بتروتسكي.

وأما الأساس السيكولوجي فيكمن في محاولتهم التغلب على الشعور بالنقص لديهم عن طريق الاختفاء وراء لحية نبي .

ولعل الطريقة المفضلة لدى جاهل أخلاقي هي الخلط بين سلوك الرجعية والثورة . إنه يتبجح في حيلته هذه عن طريق العودة الى المطابقات الشكلية، فالقيصرية والبلشفية توأمان بالنسبة له ، والتوأمية هذه يكتشفها أيضا في الفاشية والشيوعية . وقد ابتدع اختلاق آخر حول الصفات المشتركة بين الكاثوليكية ، أو بشكل أدق اليسوعية وبين البلشفية . ويعلن هتلر وموسوليني باستخدام الوسيلة نفسها بالضبط . ان الليبرالية والديمقراطية والبلشفية تمثل أشكالاً مختلفة لشر واحد . والرأي القائل بأن الستالينية والتروتسكية واحدان من حيث الجوهر، يتمتع بالموافقة الجماعية لكل من الليبراليين الديمقراطيين والكاثوليك المؤمنين والمثاليين والذرائعيين والفوضويين والفاشيين. واذا ما كان الستالينيون عاجزين عن الانتساب للجبهة الشعبية هذه، فان الأمر يعود فقط لكونهم مشغولين بالقضاء على التروتسكيين .

ان الصفة الأساسية لهذه المقاربات والمشابهات، تكمن في تجاهلها الكلي للأساس المادي للتيارات المختلفة، أي لطبيعتها الطبقية، وكذلك أيضا لدورها التاريخي الموضوعي. وبدلا من ذلك يقوِّمون ويصنفون التيارات المختلفة حسب بعض المظاهر الثانوية والخارجية، وفي كثير من الأحوال حسب علاقتها بمبدأ تجريدي معين، أو بمبدأ آخر، مبدأ يحمل للمصنف قيمة مهنية خاصة. وعلى ذلك، فبالنسبة لبابا روما، يبدو الماسونيون والدارونيون والماركسيون والفوضويون سواء، لأن جميعهم ينكرون إنكاراً شديداً حمل العذراء. وأما بالنسبة لهتلر فالليبرالية والماركسية توأمان لأنهما يتجاهلان (الدم والشرف)؛ وأما الديمقراطي، فإن الفاشية والبلشفية توأمان لأنهما لا تحترمان معاناة وآلام العالم. لا يخضعنا للتصويت العام .

ولا شك أن التيارات التي سبق جمعها لها صفات مشتركة معينة، إلا أن

أساس المشكلة يكمن في حقيقة أن تطور الجنس البشري لا يستنفد بالشقاء العالمي، أو (بالدم والشرف) أو بعقيدة (الحبل بلا دنس). إن العملية التاريخية تمثل قبل كل شيء صراع الطبقات. وأكثر من ذلك، فإن الطبقات المختلفة قد تلجأ، في مناسبات معينة، الى استخدام وسائل متشابهة باسم اختلاف الأهداف. ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك من حيث الجوهر، فالجيوش في المعارك تكون متماثلة بشكل أو بآخر. ولو لم يكن هناك شيء مشترك في وسائل الصراع بينها لما استطاع واحدها تسديد ضربات للآخر.

وإذا ما وجد فلاح جاهل أو صاحب حانوت نفسه بين نارين، وهو لا يدرك أصل أو معنى الصراع بين البروليتارية والبورجوازية؛ فسينظر الى المعسكرين المتخاصمين بكراهية متساوية. ومن ترى هؤلاء الأخلاقيون الديمقراطيون ؟ إنهم ايديولوجيو الطبقات الوسطى الذين سقطوا، أو الذين هم فريسة للخوف من الوقوع بين النارين. والصفات الأساسية التي تميز الأنبياء من هذا الطراز، هي الانعزال عن الحركات التاريخية الكبرى، ووجود عقلية شديدة المحافظة، وضيق أفق، ولون من أشد ألوان الجبن السياسي بدائية . إن الأخلاقيين يأملون أكثر من أي شيء آخر ان يتركهم التاريخ بسلام مع كتبهم ومجلاتهم الصغيرة ونشراتهم وحسهم المشترك ودفاترهم الأخلاقية. إلا أن التاريخ لا يتركهم بسلام فهو يصفعهم تارة من اليسار وطورا من اليمين. ومن الواضح ان الثورة والرجعية، القيصرية والبلشفية، الشيوعية والفاشية، الستالينية والتروتسكانية كلها توائم. ومن يشك بذلك فقد يشعر بضربات متماثلة على يافوخ طرفي اليمين واليسار لدى هؤلاء الأخلاقيين .

اللاأخلاقية* الماركسية والحقائق الخالدة

إن أشد الاتهامات الموجهة ضد اللاأخلاقية البلشفية شيوعاً وثقلاً، تستند

---

* ليس المقصود باللا أخلاقية هنا المعنى المبتذل الذي يستعمله العامة، بل ان المعنى هنا يختلف بعض الشيء. وسوف يرى القارىء في الصفحات المقبلة كثرة استعمال تروتسكي لهذا المصطلح. (المترجم).

على ما يسمى بالقاعدة اليسوعية للبلشفية: (الغاية تبرر الوسيلة). ومن هنا ليس من الصعب الوصول الى النتيجة التالية: ما دام التروتسكيون مثلهم بذلك مثل البلاشفة (أو الماركسيين) لا يعترفون بمبادىء الأخلاق، فليس هناك بالنتيجة فرق أساسي بين التروتسكية والستالينية .

لقد أجرت مجلة شهرية أمريكية في غاية السوقية والتهكم استفتاء حول الفلسفة الأخلاقية للبلشفية، وكان الاستفتاء معداً كالعادة لكي يخدم غايات الأخلاق والاعلان في وقت واحد. ولم يكن هـ. جـ. ولـز الذي لا يقلد، والـذي تفوق قناعته الذاتية الهومرية خياله، يتلكأ عن التضامن مع المتطرفين الرجعيين المؤمنين بـالحس المشترك Common Sense وهنـا يصبح كـل شيء منتظماً، بيـد أن أولئك المعنيين الذين اعتبروا من الضروري الدفاع عن البلشفية، لم يفعلوا ذلك في معظم الحالات، دون بعض المراوغات التي تنضح بـالتملص والتهرب (ايستمـان): ان مبـادىء الماركسيـة سيئة بـالطبـع، إلا ان بين البلاشفـة، على أيـة حـال، بعض الأشخاص الذين يستحقون التقدير. إن مثل هؤلاء (الأصدقاء) هم في الحق أشد خطراً من الأعداء .

إذا ما نظرنا الى هؤلاء السادة المهتمين بجدية، علينا ان نسـألهم قبل كـل شيء: ما هي مبادئكم الخلقية ؟ ذلكم سؤال بالكاد ان نسمع له جواباً. دعونا نعترف الآن إنه لا الغايات الشخصيـة ولا الغايـات الاجتماعيـة يمكنها ان تبـرر الـوسيلة. هنا يتضـح أنـه من الضـروري البحث عن مقيـاس خـارج المجتمـع التاريخي، وخارج تلك الغايات التي تظهر خلال تطورها، ولكن أين ؟ اذا لم يكن على الأرض فلا بد إذن أن يكون في السماء. لقد اكتشف الكهنة قبل زمن طويل، اكتشفوا في الوحي الإلهي مقياساً خلقياً معصومـاً، ويتحدث الكهنـة العلمانيـون الصغار عن الحقائق الخلقية الخالدة دون ان يسموا مصادرها الأصيلة. ومع ذلك فنحن محقون في استنتاجنا التالي: بما ان هذه الحقائق خالـدة، وجب ان توجـد، ليس قبـل ظهور الانسـان الذي نصفـه قرد ونصفـه الآخـر إنسـان عـلى الأرض

فحسب، وإنما قبل تطور النظام الشمسي. فمن أين ظهرت إذن ؟ إن نظرية القيم الأخلاقية الخالدة لا يمكن ان تستمر مطلقا دون الله .

إن الأخلاقيين من النوع الأنغلوساكسوني، يبدون طالما انهم لا يقصرون أنفسهم على النفعية العقلانية وعلى الأخلاق البورجوازية، يبدون بوعي منهم او بعدم وعي تلاميذ للفيزكونت شافتسبوري Viscount Shaftesbury الذي استنتج في بداية القرن الثامن (!) أحكاما خلقية من (حس خلقي) خاص افترض انه منح للانسان مرة واحدة والى الأبد. ان فوق الطبقية تؤدي بشكل حتمي الى الاعتراف بمضمون خاص (بمس خلقي)، بضمير بنوع من المطلق الذي لا يعدو كونه الاسم الفلسفي الواجف لله. وبمعزل عن الغايات، أي بمعزل عن المجتمع والأخلاق وسواء استنتجت من الحقائق الخالدة، او من (طبيعة الانسان) يبدو الأمر في النهاية شكلا من أشكال (اللاهوت الطبيعي). وتظل السماء المركز المحصن الوحيد للعمليات العسكرية ضد المادية الديالكتيكية.

وفي نهاية القرن الماضي، ظهرت في روسيا مدرسة كاملة للماركسيين ضمت كلا من ستروف وبردييف وبلفاكوف وآخرين من الذين أرادوا إغناء تعاليم ماركس بأساس ذاتي، أي بأساس خلقي يجاوز فوق الطبيعة. وقد بدأ هؤلاء بكنط Kant والأمر المطلق. ولكن كيف انتهوا؟ ان ستروف هو الآن وزير متقاعد رانغل القرمي وابن بار للكنيسة، وبلفاكوف كاهن ارثوذكسي؛ وبردييف يشرح (الرؤيا) بلغات متنوعة. إن هذه التحولات التي تبدو غير متوقعة للوهلة الأولى، لا تفسرها إطلاقا (الروح السلافية) - لدى ستروف روح المانية - وانما تفسر بمد الصراع الاجتماعي في روسيا. ان التيار الأساسي لهذه التبدلات دولي جوهريا .

وتمثل المثالية الفلسفية الكلاسيكية من حيث كونها قد استهدفت في زمانها علمنة الأخلاق، اي تحريرها من القيود الدينية، تمثل خطوة هائلة الى الأمام (هيغل) إلا ان الفلسفة الخلقية وقد انشقت عن السماء، اضطرت للبحث عن جذور أرضية. وقد كانت احدى مهام المادية اكتشاف هذه الجذور، فبعد

شافتسبوري جاء داروين وبعد هيغل جاء ماركس. فالاتجاه الآن نحو (الحقائق الأخلاقية الخالدة) يمثل محاولة لاعادة العجلات الى الوراء. ان المثالية الفلسفية مجرد مرحلة: من الدين الى المادية، او بالعكس من المادية الى الدين.

الغاية تبرر الوسيلة

ان النظام اليسوعي الذي تبلور في النصف الأول من القرن السادس عشر لمحاربة البروتستانتية، لم يبشر مطلقاً بفكرة ان أية وسيلة، حتى ولو كانت إجرامية من وجهة نظر القيم الأخلاقية الكاثوليكية، مسوغة في حال كونها تؤدي الى الغاية المتوخاة اي الى انتصار الكاثوليكية. إن مبدأ متناقضاً من الداخل، وغير ذي دلالة سيكولوجياً كهذا، كان ينسب الى اليسوعيين بخبث، من قبل خصومهم البروتستانت وبعض الخصوم الكاثوليك، الذين لم يتورعوا عن اختيار الوسائل لتحقيق غاياتهم الخاصة. وقد علم اللاهوتيون اليسوعيون الذين كانوا مشغولين، مثلهم في ذلك مثل لاهوتيي المدارس الأخرى بمسألة المسؤولية الشخصية، علموا في الواقع أن الوسيلة في حد ذاتها يمكن أن تكون أمراً لا أهمية له، ولكن تبرير الوسيلة المعنية خلقياً أو ادانتها ينطلق من الغاية. فاطلاق النار مسألة لا أهمية لها في حد ذاتها، أما اطلاق النار على كلب مسعور يهدد طفلاً فهذه فضيلة، وأما إطلاق النار بهدف الاعتداء أو القتل فجريمة. وخارج هذه المجالات العامة لم يبد لاهوتيو هذا النظام أية آراء.

ولم يكن اليسوعيون في المدى الذي يتعلق بأخلاقيتهم العملية، أسوأ من الرهبان الآخرين او الكهنة الكاثوليك على الاطلاق. وعلى العكس من ذلك، فقد كانوا متفوقين عليهم، وحيث كانوا على اية حال أشد ثباتاً وجرأة وتبصراً. وقد كان اليسوعيون يمثلون منظمة مناضلة شديدة المركزية، عدوانية وخطرة، ليس تجاه الأعداء فحسب، وإنما تجاه الحلفاء أيضاً. وبهذه السيكولوجية وطريقة العمل، ميز يسوعي تلك الفترة (البطولية) نفسه عن الكاهن العادي كمحارب من أجل الكنيسة، لا صاحب حانوتها. وليس لدينا من سبب يجعلنا ننظر الى أي منهما على

انه مثالي، بيد انه ليس بذي قيمة إطلاقا النظر الى محارب متعصب بعيني صاحب حانوت كسول وخامل.

إذا ما ظللنا في مجال المماثلات الشكلية او السيكولوجية البحتة أمكن القول، إذا ما شئتم، ان البلاشفة يبدون بالنسبة للديمقراطيين الاشتراكيين بكافة أشكالهم، كما يبدو اليسوعيون بالنسبة للسلك الكنسي المسالم. وبالمقارنة مع الماركسيين الثوريين، يبدو الديمقراطيون الاشتراكيون والمركزيون أشبه شيء بالمعتوهين، أو أشبه شيء بدجال امام طبيب: فهم يفكرون بمسألة ما حتى النهاية، ويؤمنون بقوة السحر والشعوذة، ويعجبون بجبن كل صعوبة، آملين بحدوث معجزة. وأما الانتهازيون فهم في الفكر الاشتراكي، أصحاب حوانيت مسالمون، بينما البلاشفة محاربوه الأشداء. من هنا تنشأ العداوة والكراهية للبلاشفة من جانب اولئك الذين لديهم فيض من الأخطاء التاريخية المشروطة، وليس فيضا في أية حسنة من الحسنات.

ومع ذلك يظل تناظر البلشفية واليسوعية وحيد الجانب، وسطحياً كلياً، لا بل انه من نوع أدبي أكثر من كونه من نوع تاريخي. ووفقا لطبيعة مصالح هذه الطبقات التي بنوا انفسهم عليها، يمثل اليسوعيون الرجعية ويمثل البروتستانتيون التقدم. إن محدودية هذا التقدم تجد تعبيرها المباشر بدورها في أخلاقية البروتستانتيين؛ ومن هنا فتعاليم المسيح التي قاموا بتنقيتها، لم تمنع لوثر برجوازي المدينة من الدعوة الى القضاء على الفلاحين الثائرين ووصفهم بالكلاب المسعورة. ومن الواضح ان الدكتور مارتن اعتبر ان الغاية تبرر الوسيلة حتى قبل ان ينسب هذا المبدأ الى اليسوعيين. وبالمقابل قام اليسوعيون في منافستهم مع البروتستانتية بالتأقلم أكثر من قبل مع روح المجتمع البرجوازي وروح العهود الثلاثة: الفقر والعفة والطاعة، وحافظوا على الطاعة فقط وبشكل بالغ المرونة. ومن جهة نظر المثل الأعلى المسيحي، انحدرت أخلاقية اليسوعيين بقدر ما كفوا عن كونهم يسوعيين. وقد أصبح المجاهدون في سبيل الكنيسة بيروقراطيي اليسوعية، وأصبحوا مثلهم في ذلك مثل جميع البيروقراطيين دجاجلة ناجحين.

اليسوعية والنفعية

إن هذه المراجعة المختصرة ربما كانت كافية لتوضح ان الجهل وضيق الأفق ضروريان للنظر بجدية الى المركز المعاكس للمبدأ اليسوعي (الغاية تبرر الوسيلة)، الى الحكمة الأسمى، والقائلة بأن كل وسيلة تحمل عنوانها الأخلاقي الخاص بها كالبضاعة التي تحمل سعرها المحدد في مخزن تجاري. ومن الملاحظ ان الحس المشترك لدى الانغلوساكسوني الجاهل والمتعصب قد توصل الى حالة من السخط على المبدأ اليسوعي، وان يجد الاسهام في الوقت نفسه، في الأخلاقية النفعية التي تتميز بها الفلسفة البريطانية. ومن هنا فإن مقياس بنتام ـ جون مل القائل (أعظم سعادة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الناس) تعني ان هذه الوسائل الأخلاقية تؤدي الى تعميم الرفاهية واعتبارها الهدف الأسمى. وعلى ذلك فإن المذهب النفعي الانغلوساكسوني في أشكاله العامة يتفق كليا مع المبدأ اليسوعي: (الغاية تبرر الوسيلة). فالمذهب التجريبي، كما نرى، يوجد في العالم فقط لتحريرنا من الحاجة الى جعل الطرفين يلتقيان.

لقد علم هربرت سبنسر الذي أدخل داروين في مذهبه التجريبي فكرة التطور كلقاح خاص، ان التطور في الميدان الخلقي ينطلق من الأحاسيس الى الأفكار. والأحاسيس تفرض مقياس المتعة المباشرة، بينما تسمح الأفكار للمرء بأن يتبع مقياس المتعة المستقبلية والخالدة والسامية، وعلى ذلك فإن المقياس الخلقي هنا هو المتعة والسعادة أيضاً؛ إلا ان مضمون هذا المقياس يتطلب اتساعاً وعمقاً يعتمدان على مستوى التطور. وقد بيَّن هربرت سبنسر بهذه الطريقة ايضا وبواسطة طرائق تتعلق بمذهبه النفعي (التطوري) أن مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) لا يتضمن أي شيء غير أخلاقي.

وعلى أية حال، فإن من السذاجة ان نتوقع من هذا المبدأ المجرد جواباً للسؤال العملي: ماذا يمكننا ان نفعل، وماذا لا يمكننا ان نفعله؟ وأكثر من ذلك، فإن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة يطرح السؤال التالي بشكل طبيعي: وما الذي يبرر الغاية؟ في الحياة العملية كما في الحركة التاريخية، تتبادل الغاية والوسيلة أماكنهما

باستمرار. فالآلة في طور التركيب (غاية) للانتاج، ولا يمكن ان تصبح الوسيلة الا عندما تدخل المصنع، والديمقراطية في فترات معينة هي غاية الصراع الطبقي ولا تلبث ان تتحول فيما بعد الى وسيلة له. ومع ذلك فالمبدأ اليسوعي، باعتبار انه لا يحتضن أي شيء غير أخلاقي، يخفق في حل المشكلة الأخلاقية.

وبنفس الطريقة يلقي بنا مذهب سبنسر النفعي (التطوري) في منتصف الطريق دون جواب، باعتبار انه بتبعيته لداروين يحاول حل الفضائل الأخلاقية التاريخية المتماسكة في الحاجات البيولوجية، أو (في الغرائز الاجتماعية) التي تميز الحيوانات القطيعية. ويحدث هذا في وقت يثار فيه فهم الفضائل الأخلاقية فقط في مجتمع متخاصم، أي مجتمع منقسم الى طبقات.

ان التطورية البرجوازية، تتعثر عاجزة على عتبة المجتمع التاريخي، لأنها لا ترغب بالاعتراف بالقوة الدافعة في تطور الأشكال الاجتماعية، أي بالصراع الطبقي. والأخلاق هي إحدى الوظائف الايديولوجية في هذا الصراع، فالطبقة الحاكمة تفرض أهدافها على المجتمع، وتعوده على ان يعتبر جميع هذه الوسائل التي تناقض غاياته، غير أخلاقية. وهذه هي الوظيفة الرئيسية للأخلاقية الرسمية، انها تتبع فكرة (أعظم سعادة ممكنة) ليس للأغلبية، وإنما لأقلية صغيرة تتناقص باستمرار. ومثل هذا النظام لم يكن ليصمد حتى لمدة أسبوع واحد بواسطة القوة وحدها، بل انه ليحتاج الى اسمنت الاخلاق. ويشكل انتاج هذا الاسمنت مهنة المتطرفين البرجوازيين الصغار والأخلاقيين، وهم يعكسون جميع ألوان قوس قزح، إلا انهم يظلون في التحليل الأخير دعاة للعبودية والاستسلام.

القواعد الخلقية ملزمة للجميع

إن من لا يكترث بالعودة الى موسى والمسيح ومحمد، ولا يرضى بالخلائط المنتخبة، عليه الاعتراف بأن الأخلاق نتيجة للتطور الاجتماعي، وانه ليس ثمة من شيء ثابت بشأنها، وانها تخدم المصالح الاجتماعية، وان هذه المصالح المتناقضة للأخلاق، أكثر من اي شيء آخر للايديولوجية، ذات مظهر طبقي.

ولكن ألا توجد قواعد خلقية مبدئية جرى التوصل اليها خلال تطور الجنس البشري ككل، ولا غنى عنها لوجود الجماعة نفسها؟ لا شك أن مثل هذه القواعد موجودة، إلا ان مدى فعاليتها محدود جدا وغير ثابت. وبقدر ما تكون الشخصية التي نتجت عن الصراع الطبقي حادة وذكية، بقدر ما تصبح المقاييس (الملزمة للجميع) أقل قوة. وأعلى شكل للصراع الطبقي هو الحرب الأهلية التي تفجر في الهواء جميع الارتباطات الخلقية بين الطبقات المتصارعة.

وفي الشروط (الطبيعية) يلتزم الانسان (الطبيعي) بالوصية القائلة: (لا تقتل) ولكن إذا ما قتل في شروط استثنائية من الدفاع عن النفس، فإن المحلفين يبرئون ساحته. وإذا ما سقط ضحية قاتل فإن المحكمة ستقتل القاتل. وضرورة المحاكم بالاضافة الى الدفاع عن النفس، تنطلق من مصالح عدائية، وفيما يتعلق بالدولة، فإنها تقصر نفسها في أوقات السلم على القتل المشروع للأفراد بحيث انها في وقت الحرب تستطيع تحويل الوصية الإلزامية: (لا تقتل) الى نقيضها. وأشد الحكومات انسانية، والتي تمقت الحرب في أوقات السلم، تعلن خلال الحرب، ان الواجب الأعظم لجيوشها هو محق أكبر عدد ممكن من الناس. إن ما يسمى بالقواعد الخلقية المعترف بها عامة، تحتفظ في جوهرها بسمة جبرية، اي بسمة غير ثابتة، وهي تبين فقط حقيقة كون الانسان في سلوكه الفردي مرتبطاً بمقاييس عامة معينة تمنع من كونه عضوا في المجتمع؛ وأعلى أشكال تعميم هذه المقاييس هو أمر كنط المطلق. بيد انه على الرغم من حقيقة كون هذا الأمر يحتل مركزا مرموقا في أولمب Olympus الفلسفة، فإنه لا يضم أي شيء مطلق لأنه لا يضم شيئاً محسوساً، إنه صدفة بلا نواة.

إن خواء هذه المقاييس الملزمة للجميع، ينبع من الحقيقة القائلة أنه بالنسبة لجميع المسائل الحاسمة، يشعر الناس بعضويتهم الطبقية بشكل أشد حدة ومباشرة من عضويتهم في المجتمع. ان مقاييس الأخلاق (الالزامية) هي في الواقع مليئة بمضمون الطبقة، أي بمضمون عدائي. وبقدر ما يصبح المقياس الأخلاقي مطلقاً، بقدر ما يكون (إلزاماً للجميع). فالتضامن بين العمال، وبخاصة بين المتظاهرين

او المقاتلين خلف المتاريس، هو أشد (إطلاقاً) من التضامن الانساني بشكل عام.

إن البرجوازية التي تفوق البروليتارية بمراحل في كمال وعناد وعيها الطبقي، مهتمة بشكل حيوي بفرض فلسفتها الخلقية على الجماهير المستثمرة ولهذا السبب بالذات، نجد ان المقاييس المحسوسة للوعظ البرجوازي تختفي وراء ستار من التجريدات الخلقية تتجسد بالدين والفلسفة، أو بذلك المزيج الهجين المسمى (بالحس المشترك). ان اللجوء الى القواعد المجردة ليس بخطيئة، فلسفية غير مقصودة، وإنما هو عنصر ضروري في ميكانيكية الخداع الطبقي؛ والكشف عن هذا الخداع الذي ينطوي على تقليد يعود الى آلاف السنين، هو أول واجب للثوري البروليتاري.

أزمة الأخلاق الديمقراطية

من أجل ان تضمن الطبقات الحاكمة انتصار مصالحها في المسائل الكبرى، تجد نفسها مرغمة على القيام بتنازلات حول المسائل الثانوية، وهذا طبيعي، طالما ان هذه التنازلات تتفق وحساباتها. وخلال حقبة الموجة الرأسمالية، وبخاصة خلال العقود الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية، كانت هذه التنازلات ذات طبيعة أمنية كليا بالنسبة للطبقات العليا للبروليتارية، على الأقل. وفي ذلك الوقت، اتسعت الصناعة دون ان يعرقل اتساعها شيء. كما ان رخاء الدول المتمدنة، ورخاء الجماهير الكادحة أيضاً، قد ازداد. وبدت الديمقراطية قوية متماسكة، كما نمت المنظمات العمالية، وازدادت النزعات الاصلاحية عمقا في الوقت نفسه. وأما العلاقات بين الطبقات، فقد لانت ظاهريا على الأقل. وهكذا أقيمت قواعد أخلاقية أولية في مجال العلاقات الاجتماعية، جنباً الى جنب مع أسس الديمقراطية وعادات التضامن الطبقي. وتكونت صورة مجتمع متزايد الحرية والعدالة الانسانية، وبدا خط التقدم المتصاعد للحس المشترك غير متناه.

ومع ذلك، اندلعت الحرب جارة معها ذيلاً من الانتفاضات والأزمات والكوارث والأوبئة والوحشية. ووجدت الحياة الاقتصادية للجنس البشري نفسها

في طريق مسدود، وأصبح العداء الطبقي حادا ومكشوفا. كما بدأت صمامات الأمان الديمقراطية بالانفجار واحدا بعد الآخر. وبدت القواعد الخلقية المبدئية أشد هشاشةمنالمؤسسات الديمقراطية والأوهام الاصلاحية. ونما الكذب والافتراء والرشوة والجشع والاكراه والقتل الى أبعاد لم يسبق لها مثيل. وبدت جميع هذه المزعجات بالنسبة للبسطاء المشدوهين، نتيجة من نتائج الحرب، بينما كانت في الواقع، وما تزال، من مظاهر التدهور الاستعماري. ان انهيار الرأسمالية يشير الى انهيار المجتمع المعاصر بقوانينه ومثله الأخلاقية.

إن طباق Synthesis الانحطاط الامبريالي هو الفاشية التي تتولد مباشرة عن إفلاس الديمقراطية البرجوازية أمام مشكلات الحقبة الامبريالية. وتستمر بقايا الديمقراطية بالوجود فقط في أنظمة الحكم الارستقراطية الرأسمالية الغنية. فمقابل كل ديمقراطي في انكلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا، يوجد عدد معين من العبيد المُستَعْمَرين. . وهناك ستون أسرة تسيطر على ديمقراطية الولايات المتحدة. . وهكذا. . وأكثر من ذلك فإن فروع الماشية تنموباطراد في جميع الديمقراطيات. وأما الستالينية فهي بدورها حصيلة الضغط الامبريالي على دولة للعمال متخلفة ومنعزلة، تعتبر بمثابة تكملة مماثلة للفاشية من حيث النوع.

وفي الوقت الذي يقوم فيه الجهلة المثاليون الذين يحتل الفوضويون مكان الصدارة بينهم بالطبع، بكشف القناع في صحافتهم دون هوادة عن لا أخلاقية الماركسية؛ تقوم التروستات الاميركية حسبما يقول جون ل. لويس بإنفاق ما لا يقل عن ٨٠ مليون دولار في العام الواحد في نضال عملي مضاد يستهدف تخريب الثورة، عن طريق التجسس ورشوة العمال والتزييف وعمليات القتل في الشوارع أو في الأزقة المظلمة، إن الأمر المطلق يختار في بعض الأحيان طرقاً ملتوية من أجل إحراز الانتصار.

دعونا نلاحظ بحق أن أشد أخلاقيي البرجوازية الصغيرة محدودية وإخلاصاً، ما يزالون يعيشون حتى اليوم ذكريات الأمس المفعمة بخيالات المثل الأعلى والأمل

بعودة هذه الخيالات. إنهم لا يدركـون أن الأخلاق التي هي وظيفـة من وظائف الصراع الطبقي، وأن الأخلاق الديمقراطية التي تتصل بحفنة الرأسمالية الليبرالية والتقدمية، وان الصراع الطبقي الذي يزداد حدة ويجتاز آخر مراحله، قد دمر هذه الأخلاق بشكل نهائي وحاسم. كما لا يدركون انه حلت محلها أخلاقية الفاشية من طرف، وأخلاقية القوة البروليتارية من طرف آخر.

الحس المشترك

إن الديمقراطية والأخلاقية المعروفة بشكل عام، ليستا الضحيتين الوحيدتين للأمبريالية. إن الشهيد الثالث المعذب هو الحس الكوني المشترك Universal Common Sense وهذا الشكل الأدنى للمثقف ليس ضـروريـاً فقط في جميـع الشروط، وإنما هو كـاف في ظروف معينـة أيضاً. فـرأس المال الأسـاسي للحس المشتـرك يتضمن الاستنتاجات الدولية للتجربة الكونية: عدم وضع الاصابع في النار عندما يكـون في الامكان التقـدم على طـريق مستقيمة، دون إثـارة الكـلاب الشـرسـة وهكذا. إن الحس المشترك وفق مجتمـع مستقر كـاف للمقايضـة والعلاج وكتـابة المقالات وقيادة نقابات العمال والتصويت في البرلمان والـزواج وإنجاب الـذرية. ولكن عنـدما يحـاول الحس المشترك نفسـه تجـاوز حـدوده النـافـذة الى حلبـة من التعميمات الأشد تعقيداً، يصبح مكشوفاً ككتلة من أهواء وحقبة معينة. إن أزمة رأسمالية بسيطة كافية لكي تضع الحس المشترك في طريق مسدود؛ وقبل حدوث كوارث كالثورة المضادة والحرب، يثبت الحس المشترك انه أحمق كامل. ولكي نفهم تعديات المجرى الطبيعي للأحداث، هـذه التعديـات الفاجعـة، تبدو المميـزات الأسمى للذكـاء ضـروريـة. وهـذه المميـزات يمكن شـرحهـا فلسفيـا بـواسـطة الديالكتيكية فقط.

إن ماكس ايستمان الذي يحاول بنجاح تطعيم الحس المشتـرك بأسلوب أدبي بالغ الجاذبية، قـد توصل نتيجة لنضاله ضد الديـالكتيك مـا لا يقل عن وظيفـة لنفسه. فهو يعتبر تفاهات المحافظين المتعلقة بالحس المشترك مخرجة بطريقة جيدة،

علما للثورة وبعد ان يؤيد متعاظمي الحس المشترك الرجعيين، يوضح للجنس البشري بتأكيد لا مثيل له، انه لو كان تروتسكي لا يهتدي بهدي العقيدة الماركسية، وإنما بهدي الحس المشترك، اذا لما خسر السلطة، إن ذلك الديالكتيك الداخلي الذي ظهر حتى الآن في سلسلة من المراحل الثابتة، وفي جميع الثورات، لا يوجد بالنسبة لايستمان. فتحويل الثورة من قبل الرجعية، يحدث بالنسبة له، من خلال وجود احترام غير كاف تجاه الحس المشترك. إن ايستمان لا يفهم ان ستالين هو الذي سقط ضحية للحس المشترك بالمعنى الديني أي نقصه، ما دامت تلك القوة التي يمتلكها تخدم أهدافا معادية للبلشفية. فالعقيدة الماركسية من جهة أخرى، سمحت لنا ان ننشق في الوقت المناسب عن البيروقراطية الثيرميدورية Thermidorian*، وان نستمر في خدمة أهداف الاشتراكية الدولية.

إن كل علم، بما في ذلك علم الثورة، يبرهن عليه بواسطة التجربة. وما دام ايستمان يعرف جيداً كيف يحافظ على السلطة الثورية في ظل شروط الثورة المضادة العالمية، فهو يعلم أيضاً، كما نأمل، كيف يستولي على السلطة. وسيكون من المرغوب فيه جدا ان يكشف أخيراً عن أسراره، وأفضل من هذا كله ان يفعل ذلك على شكل مشروع منهاج لحزب ثوري تحت عنوان: كيف تستولي على السلطة وتحافظ عليها. إننا نخشى، مع ذلك، ان الحس المشترك بالذات، هو الذي سيدفع ايستمان لعدم القيام بمشروع محفوف بالخطر كهذا. وفي هذه المرة، سيكون الحس المشترك على صواب.

لقد مكنتنا العقيدة الماركسية التي لم يفهمها ايستمان اطلاقا للأسف، ان نرى الحتمية في ظل أوضاع تاريخية معينة لثيرميدور سوفيتي بكل ما فيها من خفايا وجرائم، وهذه العقيدة نفسها تنبأت قبل وقت طويل بحتمية سقوط البرجوازية الديمقراطية وأخلاقها. وفي الوقت نفسه، جوبه دعاة الحس المشترك على حين غرة

---

* الثيرميدوري: أحد المشتركين في اسقاط روبسبير في الثورة الفرنسية. (المترجم).

بالفاشية والستالينية. ان الحس المشترك يعمل بأحجام ثابتة لا تتبدل في عالم لا يثبت فيه إلا التغيير. إن الديالكتيك على العكس، يأخذ بعين الاعتبار جميع الظواهر والمؤسسات والمقاييس لدى ظهورها وتطورها وانحلالها، واعتبار الديالكتيك للأخلاق نتيجة من نتائج الصراع الطبقي، يبدو (لا أخلاقية) للحس المشترك. إلا أنه ليس ثمة أخلاق أشد عنفا وضيقا وانطواء وتهكما من أخلاق الحس المشترك.

الأخلاقيون والغيبيو

لقد قدمت محاكمات موسكو الفرصة لشن حملة ضد اللاأخلاقية البلشفية. وأكثر من ذلك، فإن هذه الحملة الصليبية لم تشن دفعة واحدة. والحقيقة ان أغلبية الاخلاقيين كانوا أصدقاء الكرملين بشكل مباشر وغير مباشر، وهكذا فقد حاولوا طويلاً إخفاء دهشتهم، لا بل انهم تظاهروا بأن شيئاً غير عادي لم يحدث .

ولكن محاكمات موسكو لم تكن حادثا عارضاً على الاطلاق. فالطاعة العمياء، والنفاق، وعبادة الكذب الرسمية، والرشوة، والأشكال الأخرى للفساد، بدأت تزدهر ازدهارا عظيماً في موسكو بين عام ١٩٢٤ و١٩٢٥. فمحاكمات المستقبل الصورية أعدت علانية امام أعين العالم أجمع. ولم يكن ثمة نقص في التحذير، إلا ان الأصدقاء مع ذلك، لم يشاؤوا ملاحظة أي شيء. ولا عجب في ذلك، فأغلبية هؤلاء السادة الذين كانوا أعداء ألداء لثورة أكتوبر، أصبحوا أصدقاء للاتحاد السوفييتي، بقدر انحطاطه الثيرميدوري. لقد وجد ديمقراطيو الغرب، هؤلاء البرجوازيون الصغار، في بيروقراطية الشرق البرجوازية الصغيرة، قرابة بالدم .

ترى هل صدق هؤلاء الناس اتهامات موسكو حقاً؟ لقد صدقوا أشد هذه الاتهامات غموضاً، أما الآخرون فلم يشاؤوا ان يقلقوا أنفسهم بالتثبت من الأمر. هل من المنطقي تعكير صفو الصداقة المتينة والمريحة والجيدة المردود على الأغلب مع السفارات السوفيتية؟ وأكثر من ذلك ـ ياه، إنهم لم ينسوا ذلك ـ فإن الحقيقة الهوجاء قد تجرح كرامة الاتحاد السوفييتي. لقد كشف هؤلاء الناس

الجرائم باعتبارات نفعية، أي إنهم طبقوا علانية مبدأ (الغاية تبـرر الوسيلة).

وقد أخذ بريت مستشار الملك، الذي نجح في حينه بالظهور من خلال العهود الستالينية، واكتشف كل شيء في مكانه، أخذ عـلى نفسه المبـادهة التي لا حيـاء فيها، وسارع رومان رولان الذي تقدر سلطته الأخلاقية تقديراً عظيماً من قبل دور النشر السوفيتية، سارع الى إصدار أحد بياناته التي اتحدث فيها الغنائية الاسيانه بالتهكم. كما سارعت عصبة حقوق الانسان الفرنسية، التي أرغت وأزبدت حول لا أخلاقية لينين وتروتسكي في عام ١٩١٧ عندما فسخا التحالف العسكري مع فرنسا، سارعت لتصويـر جرائم ستـالين في عـام ١٩٣٦، وذلك لصـالح الحلف الفـرنسي السوفيتي. ان غـاية وطنيـة تبرر، كـما هو معـروف، أية وسيلة. فقـد تغاضت صحيفة (ذي نيشن) و(ذي نيو ريبوبليك) عن استثمار ياغودا Yagods، باعتبار أن صداقتهما مع الاتحاد السـوفيتي ضمنت سلطتهما عـلى الموضـوع. ومع ذلك، قبل عام واحد فقط، لم يقم هؤلاء السادة، باعتبار الستالينية والتروتسكية شيئاً واحداً على الاطلاق. ووقفـوا الى جانب ستـالين عـلانية لـواقعيته وعـدالته ولياغوداه. وهم يلتزمون بهذا الموقف طالما تسنى لهم ذلك.

وحتى لحظة إعدام توخاشفسكي وتاكير وآخرين، راقب البرجوازيون الكبـار في الدول الديمقراطية بسرور، على الرغم من أنهم تخفوا وراء قناع تصنع الفتيان، راقبوا إعدام الثوريين في الاتحاد السوفييتي. وقد استجابت لهذا المعنى كل من (ذي نيشن) و(ذي نيو ريبوبليـك) و(دورانتي) و(لويس فيشـر) وما شـابههم من أوغاد الفكر، استجابوا كلية لمصالح الامبرياليـة الديمقـراطية. وأثـار إعدام الجنـرالات البرجوازية وأرغمها على أن تدرك أن تحلل الجهاز الستاليني قد ساعد كلا من هتلر ومـوسوليني والميكـادو. وقد بـدأت النيويـورك تايمـز بحـرص، ولكن بـإصـرار، بتصحيح تعليقاتها؛ وكذلـك أخذت صحيفـة الطام البـاريسية بـالقاء ضـوء على الـوضع في الاتحـاد السوفييتي. امـا بالنسبـة لأخـلاقيي البـرجـوازيـة الصغيـرة، ومنافقيها، فلم يكونوا سوى أصداء خاضعة للطبقة الرأسمالية. وأكثر من ذلك، فبعد ان أصدرت لجنة الاستقصاء الدولية برئاسة جون ديوي قرارها، أصبح من

الواضح حتى لأتفه العقول، ان أي دفاع مكشوف آخر عن غيبو* ينطوي على خطر الموت الخلقي والسياسي. وفي تلك اللحظة قرر الأخوان ان يشيعوا الحقائق الخلقية الخالدة في عالم الله، أي ان يتقهقروا عائدين الى خندق الصف الثاني.

إن الستالينيين وأشباههم من الخائفين، لا يحتلون المكان الأخير بين الأخلاقيين. فيوجين ليونز قد انسجم انسجاما تاما مع العصبة الثيرميدورية معتبراً نفسه بلشفياً تقريباً؛ وبعد ان ترك الكرملين ـ لسبب لا يهمنا ـ صعد على الفور الى غيوم المثالية. وليستون أول من كان الى وقت قريب يتمتع بقدر كبير من الثقة، من جانب الكومينترن بحيث انه عهد اليه بالاشراف على الدعاية بالانكليزية في اسبانيا الجمهورية. ولكن هذا، بطبيعة الحال، لم يمنعه عندما تنحى عن مركزه من التنكر لألف باء الماركسية. وبعد ان انشق المنفي وولتر كريفتسكي عن الغيبو، التحق في الحال بالديمقراطيين البرجوازيين. وهذا ايضا نفس التحول الذي طرأ على تشارلز رابو بورت الهرم. فبعد ان ألقوا بالستالينية جانباً، لا يستطيع الذين ينتمون الى هذا الطراز ـ وهم كثر ـ إلا ان يبحثوا عن التعويض في مسلمات الأخلاقية المجردة، بسبب خيبة الأمل في المثل العليا التي خبروها. واذا ما سألتهم قائلا: (لماذا انتقلتم من صفوف الكومينترن أو الغيبو الى الصفوف البرجوازية) كان جوابهم حاضراً: (التروتسكية ليست أفضل من الستالينية).

ميول لاعبي الشطرنج السياسيين

(إن التروتسكية رومانطيقية ثورية، والستالينية سياسة عملية). من هذا التضاد التافه الذي يبرر فيه الجهلة حتى الأمس صداقتهم مع ثيرميدور ضد الثورة، لا يبقى أي أثر اليوم. فالتروتسكية والستالينية لم تعودا مضادتين بعد الآن، وإنما متماثلتين. وهذاالتماثل ينطبق، مع ذلك، على الشكل وليس على الجوهر. فبعد أن ارتد الديمقراطيون الى الأمر المطلق، فإنهم يستمرون في الواقع

* غيبو G.P.U البوليس السري الروسي. (المترجم).

بالدفاع عن الغيبو، ولكن بقدر أعظم من التمويه. وهكذا فإن أولئك الذين يتهجمون على الضحية يقدمون المساعدة للجلاد. وفي هذه الحالة، كما هو الأمر بالنسبة للحالات الأخرى، تقوم الأخلاق بخدمة السياسة.

إن المتعصب الديمقراطي، والبيروقراطي الستاليني شقيقان في الروح، إذا لم يكونا توأمين. وعلى أية حال فهما ينتميان سياسيا الى المعسكر نفسه. فنظام الحكم الراهن في فرنسا وفي اسبانيا الجمهورية ـ واذا أردنا ان نضيف الفوضويين ـ يستند على تعاون الستالينيين والديمقراطيين الاجتماعيين والليبراليين. واذا ما بدا حزب العمال البريطاني المستقل يعاني من المصاعب، فهذا يعود الى انه لم ينسحب من دائرة الكومينترن طيلة عدد من السنين. وقد أقصى الحزب الاشتراكي الفرنسي التروتسكيين من مناصبهم عندما أعد العدة للاتحاد مع الستالينيين، وإذا لم يكن هذا الاتحاد قد تحقق، فإن هذا لا يعود الى التباين المبدئي بين الطرفين ـ ترى ماذا بقي منه؟ وإنما الى خوف الديمقراطيين الاشتراكيين على مناصبهم. فبعد ان عاد نورمان توماس من اسبانيا أعلن (بموضوعية) ان التروتسكيين ساعدا فرانكو؛ وبهذه العبثية الذاتية قدم خدمة (موضوعية) الى جلادي الغيبو. وقد طرد هذا الرجل التروتسكيين الامريكيين من حزبه، في نفس الوقت الذي قام فيه الغيبو بإعدام مفكريهم في الاتحاد السوفييتي واسبانيا. وفي كثير من الدول الديمقراطية، استطاع الستالينيون على الرغم من لا أخلاقيتهم، ان يتعلقوا في جهاز الدولة بنجاح. وفي مجال اتحادات العمال، انسجموا بمودة مع البيروقراطيين من الاتجاهات الأخرى. صحيح ان الستالينيين يتصرفون بكثير من اللامبالاة تجاه الأنظمة الجنائية، وبالتالي يوقعون الرعب في قلوب أصدقائهم (الديمقراطيين) في اوقات السلم، إلا أنهم في الظروف الاستثنائية التي تتجلى في مثال اسبانيا، أصبحوا بثقة أكبر زعماء البرجوازية الصغيرة ضد البروليتارية.

وبالطبع لم تحمل الأممية الثانية وأممية أمستردام على كاهليهما مسؤولية تزييف المحاكمات، وإنما تركتا هذا للكومينترن. وقد ظلتا صامتتين، بينما كانتا تبينان سراً أنهما معاديتان للستالينية من وجهة النظر الأخلاقية؛ وإنما كانتا مؤيدتين

لها من وجهة النظر السياسية. ولم يجد ليون بلو المعادلات الأخلاقية في مقر بئره إلا عندما تصدعت الجبهة الشعبية في فرنسا تصدعاً نهائياً، وأرغمت الاشتراكيين على التفكير في الغد.

وإذا كان أوتو بوير قد أدان عدالة فشينسكي إدانة طفيفة، فإن هذا يعود فقط لرغبته في تأييد سياسة ستالين بقدر أعظم من عدم الانحياز. إن مصير الاشتراكية، كما جاء في بيان بوير الأخير، مرهون بمصير الاتحاد السوفيتي. و(مصير الاتحاد السوفيتي) كما يرى بوير في بيانه: (هو مصير الستالينية طالما أن (!) التنمية الداخلية في الاتحاد السوفيتي نفسه لا تتفوق على مرحلة التنمية الستالينية). إن جميع آراء بوير متضمنة في عبارته الشهيرة هذه. إن هذه العبارة تشتمل على الماركسية النمساوية بأكملها، وعلى كل الكذب والافتراء والفساد الذي تنطوي عليه الديمقراطية الاشتراكية! (طالما أن) البيروقراطية الستالينية قوية الى الحد الذي يكفي لقتل ممثلي (التنمية الداخلية)، فإن بوير يظل متعلقا بستالين. وعندما تطيح القوى الثورية بستالين، على الرغم من انف بوير، فإن بوير سيعترف بكرم (بالتنمية الداخلية) بعد ما لا يزيد على عشر سنوات من التأخير.

ووراء الأمميات القديمة ينشط مكتب لندن للمركزيين سعيدا، لأنه يجمع في ذاته خصائص روضة للأطفال، ومدرسة للمراهقين المعتوهين، وملجأ للعجزة. وقد بيّن سكرتير المكتب فيرنر بروكوي ان إجراء تحقيق حول محاكمات موسكو يمكن أن يصيب الاتحاد السوفيتي بأذى، واقترح بدلا من ذلك إجراء استقصاء حول النشاط السياسي لتروتسكي بواسطة لجنة غير منحازة تتألف من خمسة من أعداء تروتسكي الألداء. وقد تضامن كل من براندلر ولوفستون علانية مع ياغودا، وتراجعوا من يزوف فقط. وأما جيكوب والشير فقد رفض بحجة واضحة التزييف أن يدلي بشهادة في غير صالح ستالين أمام اللجنة الدولية التي ترأسها جون ديوي. إن أخلاق هؤلاء الناس المتعفنة ليست سوى نتاج سياستهم المتعفنة.

غير أنه ربما كان الدور الذي لعبه الفوضويون أشد الأدوار التي يؤسف لها. فإذا ما كانت الستالينية والتروتسكية شيئاً واحدا، كما يؤكدون في كل عبارة من عباراتهم، إذا فلماذا يساعد الفوضويون الأسبان الستالينيين في الانتقام من التروتسكيين ومن الفوضويين الثوريين في الوقت نفسه ؟ إن المُنظَرين الفوضويين الأشد صراحة يجيبون على ذلك بقولهم: إن هذا ثمن للأسلحة. وبكلمات أخرى: الغاية تبرر الوسيلة. ولكن ما هي غايتهم ؟ الفوضوية ؟ الاشتراكية ؟ كلا. إن غايتهم هي فقط إنقاذ هذه الديمقراطية البرجوازية نفسها، البرجوازية التي مهدت لنجاح الفاشية.

تلكم هي الميول الحقيقية لأحجار الشطرنج فوق لوحة السياسة العالمية.

الستالينية نتاج المجتمع القديم

لقد قفزت روسيا أكبر قفزة لها في التاريخ، قفزة وجدت فيها أشد القوى تقدمية في البلاد، المجال للتعبير عن نفسها. وفي ظل التيار الرجعي الراهن الذي يماثل تيار الثورة، يأتي التخلف ليأخذ بالثأر. إن الستالينية تحتضن هذا التيار الرجعي، وبربرية التاريخ الروسي القديم تبدو أشد إثارة للاشمئزاز وهي مستندة على قواعد اجتماعية جديدة، مادامت مكرهة على ان تخفي نفسها في ثوب النفاق الذي لا مثيل له في التاريخ.

إن ليبرالي وديمقراطيي الغرب الاشتراكيين الذين أرغموا بفعل الثورة الروسية على التشكيك بآرائهم العفنة، يشعرون الآن بدفق جديد من الشجاعة. ان الغنغرينا الأخلاقية للبيروقراطية السوفيتية بدت لهم بمثابة إعادة لاعتبار الليبرالية. وهكذا توضع الدفاتر المكررة تحت الأضواء: (كل دكتاتورية تتضمن بذور انحدارها). (الديمقراطية فقط تضمين تنمية الشخصية) وهكذا. إن المقارنة بين الديمقراطية التي تنطوي في الحالة التي قدمناها على تنديد بالاشتراكية في صالح النظام البرجوازي، تصرع إحداها نظريا بما تنطوي عليه من أمية واعوجاج. إن الفساد الستاليني، كحقيقة تاريخية، يقف في المركز المعاكس للديمقراطية: هذا تجريد فوق - تاريخي ولكن الديمقراطية تمتلك تاريخاً ايضاً لا يفتقر الى الفساد. لقد

استعرنا كلمتي ثيرميدور والبونابرتية من تاريخ البرجوازية من أجل تصوير البيروقراطية السوفيتية - فليصبح معلوماً لأصحاب العقائد الليبرالية المتقهقرين ان الديمقراطية لم تظهر في العالم بواسطة الطريق الديمقراطي على الاطلاق. ان عقلية سوقية فقط تستطيع ان ترضي نفسها باحتراز فكرة كون البونابرتية النتاج الطبيعي لليعقوبية، العقاب التاريخي لانتهاك حرمة الديمقراطية.. وهكذا بدون العقاب الذي أوقعته اليعقوبية على الاقطاعية، لم تكن البرجوازية الديمقراطية لتتحقق على الاطلاق. فمقارنة المراحل الثابتة لليعقوبية والثيروميدورية والبونابرتية مع التجريد المثالي للديمقراطية، مقارنة تنطوي على شر يماثل مقارنة آلام الوضع.

إن الستالينية بدورها ليست تجريدا للديكتاتورية، وإنما هي، رد فعل بيروقراطي واسع ضد الديكتاتورية البروليتارية في دولة متخلفة منعزلة. لقد قضت ثورة اكتوبر على الامتيازات، وشنت حرباً ضد فقدان المساواة الاجتماعية؛ واستبدلت بالبيروقراطية حكومة ذاتية للكادحين، وقضت على الدبلوماسية السرية، وحاولت جهدها لكي تجعل جميع العلاقات الاجتماعية واضحة للعيان. وأما الستالينية فقد أعادت أشد أنواع الامتيازات جوراً، وموهت عدم المساواة بطريقة استفزازية، وقضت على النشاط الذاتي قضاءً مبرراً عن طريق سلطة البوليس المطلقة، وحولت الدولة الى احتكار لأوليغارشية الكرملين، وأعادت الحياة لوثنية القوة من خلال أشكال لم تكن الملكية المطلقة لتحلم بها.

إن الرجعية الاجتماعية بجميع أشكالها، مضطرة لاخفاء نواياها الحقيقية، وبقدر ما يكون الانتقال من الثورة الى الرجعية حاداً، بقدر ما تعتمد الرجعية على أعراف الثورة وتقاليدها، أي إنه بقدر ما يعظم خوفها من الجماهير، بقدر ما تضطر للجوء الى الخداع والاحتياط في صراعها ضد ممثلي الثورة. إن تلفيقات الستالينية ليست ثمرة اللا أخلاقية البلشفية. كلا إنها، مثلها مثل جميع الأحداث الهامة في التاريخ، نتاج الصراع الاجتماعي الحاد، وحصيلة أشد هذه الصراعات حدة، أي صراع الارستقراطية الجديدة ضد الجماهير التي أوصلتها للحكم.

والحق ان الانفراج الخلقي والثقافي المطلق ضروري للمفاضلة بين أخلاقية البوليس الرجعية للستالينية، وأخلاقية البلشفيك الثورية. لقد انتهى حزب لينين قبل وقت طويل، وتصدع بفعل الصعوبات الداخلية والامبريالية العالمية، ونشأت محله البيروقراطية الستالينية، أداة البت الامبريالية. وقد أحلت البيروقراطية التعاون بين الطبقات، محل الصراع الطبقي في المسرح العالمي، وأحلت الوطنية الاجتماعية محل الأممية. ولكي تهيىء البيروقراطية الحزب الحاكم لتنفيذ مهمات الرجعية، قامت بتجديد تركيبها عن طريق إعدام الثوريين واستخدام المحترفين.

إن الرجعية تنعش وتقوي وتعيد الحياة الى تلك العناصر ذات الماضي التاريخي، والتي قضت عليها الثورة دون ان تنجح في محوها. إن طرق الستالينية تدفع الى اقصى درجات التوتر والى قمة اللامعقول، جميع وسائل الكذب والوحشية التي تنطوي عليها أجهزة السيطرة في كل مجتمع طبقي، بما في ذلك المجتمع الديمقراطي. إن الستالينية مركز تجمع لكل الأعمال الوحشية للدولة التاريخية، ولأشد صورها حقدا وبشاعة وإثارة للاشمئزاز. وعندما يضع ممثلو المجتمع القديم تجريداً مصفى للديمقراطية مقابل غنغرينا الستالينية، نكون محقين كل الحق الطلب اليهم بأن ينظروا الى أنفسهم في مرآة الثيرميدورية السوفيتية المنحرفة. أجل إن الغيبو قد فاق جميع الأنظمة الأخرى في وحشية جرائمه، إلا ان هذا ينبع من اتساع رقعة الأحداث التي هزت روسيا بتأثير حملات الامبريالية العالمية التي استهدفت إفسادها وتثبيط عزيمتها.

إن من بين الليبراليين والراديكاليين، نفر من الأفراد الذين تمثلوا طرائف التفسير المادي للأحداث ويعتبرون انفسهم ماركسيين، إلا ان هذا لا يمنعهم من ان يظلوا صحفيين برجوازيين أو أساتذة او سياسيين. إن البلشفي لا يمكن ان يتحقق دون وجود الأسلوب المادي طبعاً، وهذا ينطبق على مجال الأخلاق ايضا. إلا أن هذا الأسلوب لا يساعده فقط على تفسير الأحداث، وإنما على خلق حزب ثوري للبروليتارية. ومن المستحيل تحقيق هذه المهمة دون وجود انفصال كلي عن

البرجوازية وأخلاقيتها. ومع ذلك، فإن الرأي العام البرجوازي يسيطر الآن كلية على حركات العمال الرسمية، ابتداء من حركة وليم غرين في الولايات المتحدة، وليون بلوم وموريس توريز في فرنسا الى غارسيا اوليفر في اسبانيا. وبهذه الحقيقة يصل الوجه الرجعي للفترة الراهنة، أشد درجات تعبيره حدة.

إن الماركسي الثوري لا يمكن ان يبدأ برسالته التاريخية دون ان ينشق أخلاقيا عن الرأي العام البرجوازي وعملائه في طبقة البروليتارية. ومن هنا فإن المطلوب وجود شجاعة خلقية من مقياس آخر يختلف عن فتح الأفواه في الاجتماعات والهتاف: (يسقط هتلر)، (يسقط فرانكو). إن هذا الانشقاق الحازم والمدبر والذي لا تلين قناته، هذا الانشقاق لدى البلاشفة عن الفلسفة الخلقية المحافظة، وليس عن البرجوازية الصغيرة فحسب، هو الذي يصيب تجار الكلمات، وأنبياء الصالونات، وأبطال الكواليس بالرعب القاتل. من هنا تنبع شكواهم حول لاأخلاقية البلاشفة.

إن هذه المطابقة بين الأخلاق (بشكل عام)، يمكن ان تتحقق في أفضل وجوهها لدى جناح البرجوازية الصغيرة اليساري المتطرف، ويتحقق لدى أحزاب مكتب لندن المركزية. وما دامت هذه المنظمة تعترف بمنهاج الثورة البروليتارية، فإن مخالفتنا لها تبدو ثانوية للوهلة الأولى. والواقع ان اعترافها عديم القيمة لأنها لا تربطه بشيء. فهي تعترف بالثورة البروليتارية، كما يعترف اتباع كنط بالأمر المطلق، أي كمبدأ مقدس، ولكنه غير ممكن التطبيق في الحياة العملية. وفي مجال السياسة العملية، يوجد مكتب لندن بين اعنف أعداء الثورة (الاصلاحيين والستالينيين) من أجل الصراع ضدنا. إنه تفكير مغرق في التزييف. فإذا ما كان المركزيون حسب القاعدة العامة لا يضعون انفسهم في موضع من يرتكب الجرائم: فإن هذا يعود لأنهم يظلون في الشوارع الخلفية للسياسة: إنهم نشالون صغار للتاريخ، ولهذا السبب فهم يعتبرون انفسهم مدعوين لتجديد حركة العمال بأخلاقية جديدة.

وإلى أقصى يسـار هـذا الاخـاء (اليسـاري) تقف مجمـوعـات صغيـرة من المهـاجرين الألمـان لا أهمية لهـا إطلاقـا من الناحيـة السياسيـة، وتصدر صحيفـة (الطريق الجديـد Neuer Weg). دعونـا ننحني أكثر ونستمـع الى هؤلاء المتهمين (الثوريين) الذين يشيرون بأصابعهم الى لا أخلاقية البلاشفة. إن صحيفة (الطريق الجديد) تعلن بلهجة غامضة ان البلاشفة يتميزون عن الأحزاب الأخرى باختفاء عنصر النفاق لديهم ـ ويعلنون ان الآخرين يطبقون مبدأ الغاية تبرر الوسيلة . إلا أنه وفقا لقناعات (الطريق الجديد) يبدو مثل هذا المبدأ البرجـوازي متناقضـاً مع (حركة اشتـراكية صحيحـة). (الكذب ومـا هو أسـوأ منه ليس وسيلة مشـروعة للنضال، كما لا يزال لينين يؤمن). إن كلمة (لا يزال) تشير الى ان لينين لم ينجح في التغلب على أوهامه حتى اكتشاف (الطريق الجديد).

وفي معادلة (الكذب وما هو أسوأ منه) تدل كلمة (أسوأ) كما هو واضح، على العنف والقتـل وما الى ذلـك، ما دام العنف في ظـل شروط متعـادلـة أسـوأ من الكذب، والقتل أشد أشكال العنف تطرفاً. وهكذا نصل الى نتيجـة مفادهـا ان الكذب والعنف والقتل تتنافى مع حركة اشتـراكية صحيـة. فما هي عـلاقتنا إذن بالثورة ؟ إن الحرب الأهلية هي أشد أشكال الحـرب حدة، ولا يمكن ان تحـدث دون استخدام العنف فحسب، وإنما دون استخدام التكنيك المعاصر لقتل الشيوخ والنساء والأطفال. فهل على المرء أن يتذكر اسبانيـا، ان الجواب الممكن الـوحيد لأصدقاء اسبانيا الجمهورية هو كالتـالي: ان الحرب الأهليـة أفضل من العبـودية الفاشية، غيـر ان هذا الجواب الصحيح تماماً يعني فقط ان الغاية (الديمقراطية أو الاشتراكية) تبرر على ضوء شروط معينة، وسائل كالعنف والقتل، هذا اذا لم نذكر الكذب ! فبدون الكذب تبدو الحرب مستحيلة، كما أن الآلة لا تعمل دون وجود الزيت. فمن أجل حماية جلسة مجلس النواب من قنابل الفاشيين، خدعت حكومة برشلونة الصحفيين عدة مرات عن عمد، كما خدعت رعاياها. فهل كان بوسعها التصرف على نحو آخر؟ إن من يقبل بالغاية: النصر على فرانكو، عليـه ان يقبل بالوسيلة: الحرب الأهلية وما يرافقها من فظائع وجرائم.

ومع ذلك، ألا يثير الكذب والعنف (في حد ذاتهما) الاستنكار ؟ بالطبع إنهما يثيران الاستنكار، كما يثير الاستنكار ذلك المجتمع الطبقي الذي يتولدان عنه. إن مجتمعاً بلا تناقضات اجتماعية، سيكون بطبيعة الحال مجتمعاً دون كذب ودون عنف. ومع ذلك، فليس هناك من طريق لبناء جسر يوصل الى ذلك المجتمع، إلا بالوسائل الثورية، اي بالعنف. إن الثورة في حد ذاتها نتاج المجتمع الطبقي، وهي تحمل آثاره بالضرورة. ومن وجهة نظر (الحقائق الأزلية) تبدو الثورة (ضد الأخلاق) بطبيعة الحال. إلا ان هذا يعني فقط ان الأخلاقية المثالية مناهضة للثورية، أي انها في خدمة المستغلين.

إن الحرب (الأهلية) كما قد يرى الفيلسوف: (هي استثناء محزن على أية حال. بيد ان حركة اشتراكية صحيحة يجب ان تنجح في أوقات السلم، دون عنف وكذب). مثل هذا الجواب لا يشكل أقل من مواربة تنطوي على شيء من العطف. لا توجد حدود لا يمكن اجتيازها بين النضال الطبقي السلمي وبين الثورة. فكل إضراب يضم بشكل مركز جميع عناصر الحرب الأهلية، وكل طرف يجهد للتأثير على الخصم بواسطة صورة مبالغ فيها، تبين تصميمه على النضال وإمكاناته المادية. ويحاول الرأسماليون بواسطة صحافتهم وعملائهم وجواسيسهم، دب الرعب والوهن في قلوب المتظاهرين، وتضطر شراذم العمال من جانبها الى اللجوء للقوة عندما لا ينجح الاقناع. وهكذا، فإن (الكذب وما هو أسوأ منه) هما جزء لا يتجزأ من النضال الطبقي، حتى في أشد مراحله بدائية. ونضيف على ذلك، ان معنى الحقيقة والكذب قد تولد عن التناقضات الاجتماعية.

الثورة ونظام الرهائن

إن ستالين يقبض على أطفال خصومه ويعدمهم رميا بالرصاص، بعد ان يقضي على هؤلاء الخصوم، عن طريق اتهامات مزيفة. وبمساعدة مؤسسة الأسرة، يرغم ستالين أولئك الدبلوماسيين السوفييت الذين سمحوا لأنفسهم

بـالتعبير عن شكـوكهم في عصمة يـاغودا او يـازوف، يرغمهم عـلى العـودة من الخارج. ويجد أخلاقيو (الطريق الجديد) ان من الضروري والمناسب تذكيرنا بهذه المنـاسبة، بحقيقـة كون تـروتسكي قد قـدم ايضا قـانونـاً في عـام ١٩١٩ يتعلق بالرهائن، ولكن يصبح من الضـروري هنا ان نقتـطف كلام (الـطريق الجديـد) حرفياً: (ان اعتقال الأقرباء الأبرياء من قبل ستالين بربرية تثير الاشمئزاز، ولكنها تظل بربرية عندما أمر بها تروتسكي عام ١٩١٩). ذلكم هو الأخلاقي المثالي بكل روعته وجماله! إن مقاييسه تناهز في تزييفها تزييف مقاييس الديمقراطية البرجوازية. وفي الحالتين يفترض التشابه، حيث لا يوجد أثر له في الواقع .

إننا لن نصر هنا على حقيقة كون قانون عام ١٩١٩ لم يؤد، إلا في أحوال نادرة جدا، إلى إعدام أقرباء أولئك القادة الذين لم تؤد خيانتهم الى فقـدانها أعدادا لا تحصى من البشر فحسب، وإنما هددت الثورة نفسها بالدمار. والمسألة في النهاية لا تتعلق بهذا، فلو ان الثورة أبدت كرماً أقل منذ البداية، لأمكن إنقاذ حيـاة مئات الآلاف من الناس. هكذا فإنني أتحمل المسؤوليـة الكاملة لقـانون ١٩١٩. لقـد كانت وسيلة ضرورية للنضال ضد الظالمين. إن تبرير القانون يكمن في المحتوى التاريخي للنضال فقط، كما يكمن تبرير الحرب الأهلية أيضاً، وهي الحـرب التي يمكن ان ندعوها بحق (بربرية تثير الاشمئزاز).

إننا نترك لأميل لودفيغ أو أمثاله رسم صورة ابراهام لنكـولن بأجنحـة وردية صغيرة. فمغزى لنكولن لا يكمن في تردده امام أشد الوسائل حدة، عندما تبـدو هذه الوسائل ضرورية من أجل إنجاز هـدف تاريخي عـظيم يفرضـه تطور دولـة نـاشئة. إن المسـألـة لا تكمن حتى في عـدد الضحـايـا الـذي سببـه المعسكـران المتصارعان، او تحملاه. فالتاريخ لديه مقاييس مختلفة يقيس بها قسوة الشمـاليين والجنوبيين في الحرب الأهلية. فهناك مالك العبيد الذي يكبد عبيده بواسطة المكر والعنف، وهناك العبد الذي يحطم بالمكر او العنف أغلاله ـ ألا فليكف الخصيان المهانون عن إخبارنا بأنهم متساوون أمام محكمة الأخلاق ! !

بعد ان أغرقت كومونة باريس بالدماء، وأخذ الأوغاد الرجعيون في العالم أجمع يلطخون رايتها بالقدح والتشهير، لم يوجد حتى عدد قليل من جهّال الديمقراطية المتأقلمين مع الرجعية، يبادر الى مهاجمة القائمين على الكومونة، بسبب إعدامهم لـ ٦٤ رهينة، وعلى رأسهم كبير أساقفة باريس. إن ماركس لم يتردد لحظة في الدفاع عن تصرف الكومونة الدموي هذا. وقد ذكرنا ماركس في منشور صادر عن المجلس العام للأممية الأولى، كان ينضح بنيران المهل*، ذكرنا بالبرجوازية التي اتبعت نظام الرهائن ضد الشعوب المستعمرة، وضد طبقاتها الكادحة. ثم أشار بعد ذلك الى الاعدام المنظم الذي نفذه الرجعيون المسعورون ضد أسرى الكومونة، وقال (لقد اضطرت الكومونة لكي تحمي حياة أسراها، للجوء الى الأسلوب البروسي، أسلوب الحصول على الرهائن. وقد فقدت حياة الكثيرين من الرهائن بسبب استمرار إعدام المساجين من جانب فرساي. فكيف يمكن إنقاذهم بعد الآن، بعد المذبحة التي دشن حرس مكماهون بها دخولهم الى باريس. فهل اعتبر آخر قيد على وحشية الحكومات البرجوازية العديمة الضمير - أخذ الرهائن - عارا يثير الخجل؟). لقد دافع ماركس عن إعدام الرهائن، على الرغم من انه جلس خلفه في (المجلس العام)، عدد غير قليل من اتباع فيرنر بروكوي ونورمان توماس واوتو بورز. ولكن غضب العالم البروليتاري ضد وحشية فرساي كان لا يزال ماثلاً في الأذهان، بحيث ان الأخلاقيين الرجعيين الأغبياء، فضلوا الاعتصام بالصمت انتظارا لوقت أشد ملاءمة لهم، لم يلبث ان حان بسرعة ويا للأسف. ولم يحزب الأخلاقيون من البرجوازيين الصغار، وبيروقراطيو اتحادات العمال والفوضويون، على الأممية الأولى، إلا عندما بدا ان الرجعية قد أحرزت نصرا ساحقاً.

وعندما كانت ثورة اكتوبر تدافع عن نفسها ضد قوى الامبريالية المتحدة، على طول ٥٠٠٠ ميل، اتبع عمال العالم أجمع خط النضال باندفاع شديد، جعلهم

* Lava المهل: اي السائل الناري الذي يندفع مع البراكين. (المترجم).

يرونأنمنالخطورة بمكان الشكوى من (البربرية المثيرة للاشمئزاز) لنظام الرهائن. ان تدهور الدولة السوفيتية الكامل وانتصار الرجعية في عدد من البلدان، كان ضرورياً لكي يزحف الأخلاقيون من داخل مخابئهم لمد يد المساعدة لستالين. فإذا ما كان صحيحاً أن أعمال القمع التي تحمي امتيازات الارستقراطية الجديدة، تحمل نفس القيمة الخلقية التي تحملها الخطوات الثورية للنضال التحرري، فان ستالين معذور كلياً إذن، إذا لم تتعرض الثورة البروليتارية كلها للإدانة.

إن السادة الأخلاقيين، في بحثهم عن نماذج تمثل لاأخلاقية الحرب الأهلية الروسية يجدون أنفسهم، في الوقت نفسه، مرغمين على التعامي عن حقيقة كون الثورة الاسبانية قد استخدمت ايضا نظام الرهائن، خلال الفترة التي كانت فيها ثورة حقيقية للجماهير على الأقل. فإذا لم يهاجم الذين يوجهون الاتهام، العمال الاسبان، لسبب (بربريتهم المثيرة للاشمئزاز)، فإن هذا يعود فقط لأن أراضي شبه جزيرة البرنيه Pyrennean ما تزال حارة جدا بالنسبة لهم. إن من المناسب أكثر بكثير العودة الى عام ١٩١٩، فإن هذا التاريخ نسيه الكهول، ولم يتعلمه الشبان بعد. ولهذا السبب نفسه، فإن الفريسيين من جميع الفئات يتذكرون كرونشتاد Kronstadt* وماخنو Makhno** بكثير من العناد ـ وهنا يوجد المخرج للطوباوية الخلقية.

أخلاق الكفير*

من المستحيل ألا نقف مع الأخلاقيين في ان التاريخ يختار مسالك قاسية. ولكن أي نوع من النتائج لنشاطنا العملي، يمكن ان نستخلصه من ذلك؟ لقد أوصى ليون تولستوي بأن ننسى الأعراف الاجتماعية وان نصل الى درجة

---

* كرونشتاد: قاعدة بحرية للاتحاد السوفياتي، بناها بطرس الكبير، تقع في جزيرة من خليج فنلندا، على مصب نهر اليفا. (المترجم).

** ماخنو: عاصمة داغستان عدد سكانها ١٤٠٠٠٠ نسمة، تقع على بحر قزوين وفيها صناعة كيميائية.

*** الكفير Kaffirs: إحدى قبائل الكفرة الذين يتزلون جنوبي افريقية وخاصة الزولو. (المترجم).

الكمال. وينصح المهاتما غاندي بشرب حليب الماعز. إن أخلاقيي (الطريق الجديد)، (الثوريين) لم يذهبوا بعيداً ـ للأسف ـ عن هذه الوصفات. إنهم يبشرون بأن (علينا ان نحرر أنفسنا) من (أخلاق الكفير) الذي يعتبر أن ما يفعله العدو هو الخطأ فحسب. إنها لنصيحة ممتازة! (ان علينا ان نحرر أنفسنا...)؛ لقد أوصى تولستوي ايضا بأن نحرر أنفسنا من خطايا الجسد. ومع ذلك فان الأرقام تخفق في تأكيد نجاح وصيته. لقد نجح أقزام الوسط عندنا في رفع أنفسهم الى أخلاقية الطبقة العليا في مجتمع طبقي. ولكن ٢٠٠٠ عام مضت تقريباً منذ ان قيل: (أحب أعداءك)، (أدِر خدّك الأيمن)، ومع ذلك فحتى الأب الروماني المقدس لم ينجح حتى الآن في (تحرير نفسه) من كراهية أعدائه. حقا ان الشيطان عدو الجنس البشري، على قدر كبير من القوة!

إن تطبيق مقاييس مختلفة للعمل، بالنسبة للمستغلين والمُسْتَغَلّين يمثل، بالنسبة لهؤلاء الأقزام، الذين يستحقون الشفقة، الوقوف عند مستوى (أخلاق الكفير). فقبل كل شيء ليس من عادة (الاشتراكيين) الاشارة الى الكفيريين بازدراء، فهل أخلاق الكفيريين سيئة حقاً؟ إليكم ما تقوله الموسوعة البريطانية حول الموضوع:

(إن الكفيريين يبدون في علاقاتهم الاجتماعية والسياسية الكثير من اللطف والذكاء، وهم شجعان الى حد كبير، ومحاربون وكرماء. كما أنهم ظلوا أمناء وصادقين، حتى اتصل بهم البيض، فأصبحوا شكاكين ومحبين للانتقام، والسرقة، هذا بالاضافة الى انهم اكتسبوا معظم رذائل الأوروبيين). من المحال ألا نصل الى نتيجة مفادها ان بعثات التبشير البيضاء، ومبشري الأخلاق الأزلية، قد أسهموا في إفساد الكفيريين.

إذا ما قمنا بإخبار الكادح الكفير كيف هب العمال في جزء من كوكبنا، وداهموا مستغليهم على غفلة منهم، فإنه سيكون سعيداً جداً. ومن جهة اخرى، فإنه سيشعر بكثير من الاكتئاب، إذا ما اكتشف ان الظالمين قد نجحوا في خداع

المظلومين. إن الكفير الذي لم تفسده البعثات التبشيرية حتى النخاع، لن يطبق نفس المقاييس الأخلاقية المجردة على الظالمين والمظلومين. ومن هنا، فهو سيفهم بسهولة توضيحاً مفاده ان وظيفة هذه المقاييس المجردة منع المظلومين من الثورة ضد ظالميهم.

يا لها من مصادفة بناءة! فلكي يتهجم مبشرو (الطريق الجديد) على البلاشفة، اضطروا في الوقت نفسه الى التهجم على الكفيريين. وأكثر من ذلك، فإن التهجم يسير في خط الكذبة البرجوازية الرسمية: أي ضد الثوريين وضد الملونين. كلا اننا لنفضل الكفيريين على جميع بعثات التبشير الروحية والعلمانية!

ومع ذلك فإن من الضروري بالنسبة لأية قضية، ان نغالي في تقدير شدة الضمير لدى أخلاقيي (الطريق الجديد) والجماعات الأخرى التي تسير في طريق مسدودة. ان نوايا هؤلاء الناس ليست سيئة جداً، إلا أنه على الرغم من هذه المؤسسات، فإنهم يقومون بدور الرافعة في جهاز الرجعية. في هذا الوقت الذي تلتصق فيه أحزاب البرجوازية الصغيرة بالبرجوازية الليبرالية، او بظلها (سياسة الجبهة الشعبية) تقوم بشل البروليتارية، وتمهيد الطريق للفاشية (اسبانيا، فرنسا...) ويصبح البلاشفة، أي الماركسيين الثوريين، جماعة ممقوتة في أعين الرأي العام البرجوازي. إن الضغط السياسي الأساسي في زماننا ينتقل من اليمين الى اليسار. وفي التحليل الأخير، يقع ثقل الرجعية كلها على كواهل أقلية ثورية صغيرة، وهذه الأقلية تدعى بـ (الأممية الرابعة) ذلكم هو العدو.

إن الستالينية تحتل في جهاز الرجعية مراكز قيادية عديدة. فجميع تجمعات المجتمع البرجوازي، بما في ذلك الفوضويين، تعتمد على مساعدتها في نضالها ضد الثورة البروليتارية، وفي الوقت نفسه، يحاول ديمقراطيو البرجوازية الصغيرة بنسبة خمسين بالمائة على الأقل، أن يلقوا بعبء جرائم حلفائهم في موسكو، على الأقلية الثورية التي لا تقهر. وفي هذا يكمن معنى القول الشائع: (التروتسكية والستالينية كل واحد ومتماثل). وهكذا فإن خصوم البلاشفة والكفيريين يساعدون الرجعية

في التهجم على حزب الثورة .

لا أخلاقية لينين

لقد كان (الثوريون الاجتماعيون) الروس، أشد الأفراد أخلاقية دائما، وهم يتألفون من الأخلاقيين وحدهم. ولكن هذا لم يمنعهم، مع ذلك، من خداع الفلاحين الروس وقت الثورة. يكتب زنزينوف Zenzinov، ذلك الاشتراكي الأخلاقي جدا، والذي سبق ستالين في تلفيق الاتهامات ضد البلاشفة، يكتب هذا (الثوري الاجتماعي) في الصحيفة الباريسية الناطقة باسم كيرنسكي قائلا: (لقد علم لينين كما هو معروف ان الشيوعيين يستطيعون تحقيق الأهداف المرجوة ويتوجب عليهم في بعض الأحيان، اللجوء الى جميع أنواع الحيل والمناورات). (روسيا الجديدة عدد ١٧ شباط ١٩٣٨ ص ٣). من هذا استنتجوا استنتاجهم الطقسي: الستالينية هي النتيجة الطبيعية للينينية.

ولسوء الحظ، فإن موجهي الاتهام الأخلاقيين ليسوا قادرين حتى على الاستشهاد بأقوال الآخرين بأمانة. لقد قال لينين: (ان من الضروري ان نكون قادرين. . . للجوء الى جميع أنواع الحيل والمناورات والأساليب غير المشروعة، والى المراوغة والتحايل، من أجل النفاذ الى نقابات العمال والبقاء فيها، والاستمرار بالعمل الشيوعي في داخلها بأي ثمن) . ان الحاجة للمراوغة والمناورة، كما يوضح لينين، تحتمها حقيقة كون البيروقراطية الأخلاقية تخون العمال، وتقف بجانب رأس المال، وتهاجم الثوريين وتضطهدهم، وتلجأ حتى الى إرشاد بوليس البرجوازية اليهم. إن (المناورات) و(الحيل) هي في هذه الحالة مجرد أساليب للدفاع المشروع عن النفس ضد البيروقراطية الاصلاحية الغادرة. إن حزب زنزينوف هذا قام مرة بعمل غير مشروع ضد القيصرية، وضد البلاشفة فيما بعد. وفي الحالتين لجأ الى الخبث والمراوغة وجوازات السفر المزورة، وأشكال التحايل الأخرى. كل هذه الأساليب لم تعتبر أخلاقية فحسب، وإنما بطولية أيضاً، لأنها اتفقت والأهداف السياسية للبرجوازية الصغيرة. ولكن الموقف يتبدل دفعة واحدة عندما يضطر الثوريون البروليتاريون الى اللجوء بأساليب تآمرية ضد

الديمقراطية البرجوازية. إن مفتاح أخلاقيـة هؤلاء السادة لـه، كما نـرى، شكل طبقي !

إن (اللا أخلاقي) لينين يقدم في الصحافة علانية، نصيحة تتعلق بالـدهاء العسكري ضد القادة الخونة. ويعتبر الأخلاقي زنزينوف بحقد، طرفي عبارة لينين لخداع القارىء. ان موجه الاتهام الأخلاقي يتبين كالعادة، مجرد محرف صغير. إن لينين لم يكن مغرما بتكرار عبـارة: (إن من الصعب مقابلة الأعـداء من أصحاب الضمائر) لم يكن لينين مغرما بتكرار هذه العبارة دون سبب !

والعامل الذي لا يخفى عن الرأسماليين حقيقة الخطط التي يعتزم المضربـون تنفيذها، إنما هو خائن يستحق الازدراء والمقاطعة. والجندي الذي يفضح الحقيقة للعدو يعاقب على أساس انه جاسوس. لقد حـاول كيرنسكي أن يتهم البـلاشفة بأنهم قد أفصحوا عن الحقيقة لجماعة لودندوف. ويبدو انه حتى الحقيقة المقدسـة ليست غاية في حد ذاتها، فإن مقاييس أشـد تعسفا، تبـدو من خلال التحليـل، وتحمل شكلا طبقياً هي التي تسيطر عليها .

إن نضال الحياة والموت غير ممكن دون دهاء عسكري، او بعبارة أخرى دون كذب وخداع. فهل المطلوب من البروليتاري الألمـاني ألا يخدع بـوليس هتلر، أم لعل موقف البلاشفة السـوفيت بالـلا أخلاقيـة عندمـا يخدعـون الغيبو. إن كـل برجوازي يصفق لذكاء البوليس عندما ينجح بخبثه ودهائـه، بالقبض عـلى مجرم خـطر، فهل الخبث والـدهاء العسكريان مسمـوح بهما حقـا عندمـا يتعلق الأمر بالاطاحة بغانغستر الامبريالية ؟

يتحدث نورمان توماس عن (اللا أخـلاقية الشيـوعية العجيبـة التي لا يهمها سوى الحزب وسلطته) (سوسشياليست كول، ١٢ آذار ١٩٣٨ ص ٥). وأكـثر من ذلك، فإن توماس يضرب بالكومنتيرن عـرض الحائط ويعتبـره مؤامرة دبـرتها بيروقراطية الكرملين المعادية للطبقة العاملة مع حزب البلاشفة الذي مثل مؤامرة العمال المتقدمين ضد البرجوازية. هذه المطابقة غير الأمينة اطلاقا، قـد فضحت

أعلاه بما فيه الكفاية. ان الستالينية تفضح نفسها بخضوعها لعبادة الحزب، والواقع انها تدمر الحزب وتمرغه بالوحل. ومع ذلك، فإنه لصحيح ان الحزب بالنسبة للبلاشفة هو كل شيء. و(توماس) اشتراكي الصالونات يشعر بالدهشة من وجود علاقة متشابهة بين ثوري ما وبين الثورة، ويعترض عليها لأنه هو نفسه مجرد برجوازي يحمل (مثلا أعلى) اشتراكياً. والحزب في أعين توماس واضرابه مجرد أداة ثانوية للحملات الانتخابية والأغراض المشابهة، لا أكثر. فحياته الشخصية ومصالحه وارتباطاته ومقاييسه الخلقية توجد خارج الحزب، وهو ينظر من عل وبشيء من الدهشة العدائية الى البلاشفة، الذين يرون في الحزب سلاحاً لتجديد بناء المجتمع ثورياً، بما في ذلك أخلاقه أيضاً. وبالنسبة للماركسي الثوري، لا يمكن ان يوجد تناقض بين الأخلاق الشخصية ومصالح الحزب باعتبار ان الحزب يضم في ضميره ووجدانه أعلى مهمات وأهداف الجنس البشري. إنه لمن السذاجة ان نتخيل ان لدى توماس قدرا أعلى من الفهم للأخلاق، مما لدى الماركسيين، ان لديه مجرد تصور مبدئي للحزب.

يقول الديالكتيكي غوته: (ان كل ما يظهر مآله الى زوال). وزوال حزب البلاشفة - حديث الرجعية العالمية - لا يقلل مع ذلك من دلالته العالمية التاريخية. لقد كان خلال صعوده الثوري، أي عندما مثل فعلا طليعة البروليتارية، كان أشد الأحزاب امانة في التاريخ... وبالطبع فقد خدع الأعداء الطبقيين أنّى استطاع الى ذلك سبيلا. ومن جهة أخرى أخبر الكادحين بالحقيقة، الحقيقة الكاملة ولا شيء سوى الحقيقة. ولهذا السبب فقط يعزى نجاحه في كسب ثقتهم الى درجة لم يحرزها اي حزب آخر في العالم من قبل.

إن كتبة الطبقات الحاكمة يدعون منظمي هذا الحزب باللا أخلاقيين. وهذا الاتهام يحمل في أعين العمال الواعين لوناً من الاطراء، فهو يشير الى ان لينين قد رفض الاعتراف بالمقاييس الخلقية التي وضعها ملوك العبيد لعبيدهم، ولم يلتزم بها انفسهم، وهو يشير ايضا الى ان لينين قد دعا البروليتارية لكي توسع من نطاق

نضالها الطبقي الى المجال الخلقي ايضا. ان الذين يتملقون الشرائع التي وضعها العدو، لن ينجحوا مطلقا في التغلب على ذلك العدو!

إن (لا أخلاقية) لينين، أي رفضه لأخلاق الطبقة العليا، لم يمنعه من ان يظل أمينا لمثل أعلى واحد خلال حياته كلها، ولم يمنعه من تكريس كل وجوده لقضية المظلومين، ومن عرض أعلى درجات الضمير في مجال الأفكار، وأعلى درجات الشجاعة في مجال العمل، ومن الحفاظ على موقف نقي لا يشوبه أي قدر من التعالي على عامل (عادي)، أو امرأة مغلوبة على أمرها، أو طفل. ألا يبدو أن (اللاأخلاقية) في هذه الحالة مجرد اسم مستعار لأخلاقية إنسانية أسمى.

حادثة بناءة

من المناسب ان نقص هنا حادثة، لا تفشل في تصوير الفرق بين أخلاقهم وأخلاقنا، على الرغم من أبعادها المتواضعة. ففي عام ١٩٣٥ طورت، من خلال رسالة الى اصدقائي البلجيكيين، فكرة ان محاولة حزب ثوري شاب، ان ينظم اتحادات عمال خاصة به، هي بمثابة الانتحار. إن من الضروري ان نسعى الى العمال حيثما وجدوا. ولكن هل يعني هذا ان نبذل الأموال من أجل إقامة جهاز انتهازي؟ لقد أجبت على هذا السؤال بقولي: (طبعا. فلكي نسيطر على الاصلاحيين من الضروري ان نبذل لهم الأعطيات مؤقتاً). ولكن الأصلاحيين لن يسمحوا لنا بالسيطرة عليهم؟ أجبت على ذلك قائلا: (حقا ان السيطرة تتطلب اتخاذ خطوات تآمرية. فالاصلاحيون هم البوليس السياسي للبرجوازية، داخل الطبقة العاملة. إن علينا ان نتصرف دون إذن منهم، وضد أوامرهم...). وقد استولى البوليس البلجيكي على رسالة خلال غارة حدثت عرضاً، على منزل الرفيق (د) تتعلق - على ما أظن - بتزويد العمال الاسبان بالسلاح. وخلال عدة أيام نشرت الرسالة، وبالطبع لم تتورع صحافة فندر فيلد، ودومان، وسباك، عن شن الهجوم ضد (مكيافيلتي) و(يسوعيتي). ومن ترى هؤلاء الذين يوجهون الاتهامات. ان فندر فيلد، رئيس الأممية الثانية لسنوات عدة، أصبح قبل وقت

طويل، خادماً أمينا لرأس المال البلجيكي. ودومان الذي يضخم الاشتراكية بأخلاقيات مثالية في سلسلة من المجلدات الضخمة، ويتقرب من الدين، اغتنم أول فرصة لخيانة العمال، وأصبح وزيرا برجوازيا عاديا. وأما قضية سباك فهي أشد طرافة، فقبل عام ونصف كان هذا السيد ينتمي الى المعارضة اليسارية الاشتراكية، وجاءني الى فرنسا بحثا عن نصيحتي حول طرق النضال ضد بيروقراطية فندر فيلد. وقد قدمت نفس الأفكار التي تضمنتها رسالتي فيما بعد، ولكن بعد عام من هذه الزيارة، رفض سباك الأشواك حبا بالزهور. وبعد ان خان رفاقه في المعارضة، أصبح أشد عملاء رأس المال البلجيكي استخفافاً. إن هؤلاء السادة يخنقون كل صوت يرتفع منتقداً في نقابات العمال، وفي حزبهم. ويفسدون ويرشون بطريقة منظمة أشد العمال تقدمية، كما يطردون العمال المنحرفين بنفس الطريقة، وهم يتميزون عن الغيبو فقط بحقيقة كونهم لم يلجأوا بعد لاراقة الدماء. فباعتبارهم وطنيين طيبين، يوفرون دماء العمال للحرب الامبريالية المقبلة، ومن الواضح ان على المرء ان يكون شديد الكراهية، ان يكون كسيحاً خلقياً، وان يكون كافيريا، بلشفياً، من أجل ان ينصح العمال الثوريين بالالتزام بتعاليم التآمر في النضال ضد هؤلاء السادة!

إن رسالتي لم تنطو على أي شيء جنائي، من وجهة نظر القوانين البلجيكية. وقد كان من واجب البوليس (الديمقراطي) ان يعيد الرسالة الى المرسل اليه، مع الاعتذار. وكان من واجب الحزب الاشتراكي ان يحتج ضد الغارة التي أملتها دوافع تتعلق بمصالح الجنرال فرانكو. ولكن السادة الاشتراكيين لم يعترهم الخجل اطلاقا من استغلال خدمات البوليس الفظة. فبدون ذلك لم يكن ليتاح لهم التمتع بفرصة طيبة لعرض تفوق أخلاقهم مرة أخرى، على لا أخلاقيي البلاشفة.

وكل شيء رمزي في هذه الحادثة. فقد صب الديمقراطيون الاشتراكيون في بلجيكا جام غضبهم علي، في الوقت نفسه الذي اعتقلت فيه انا وزوجتي من قبل أصدقائهم المفكرين في النرويج، لمنعنا من الدفاع عن انفسنا ضد اتهامات الغيبو.

لقد علمت الحكومة النروجية جيدا ان اتهامات موسكو كانت ملفقة ـ وقد أكدت هذه الصحيفة الديمقراطية الاشتراكية شبه الرسمية، علانية خلال الأيام الأولى. ولكن موسكو ضغطت على أصحاب السفن وتجار السمك النروجيين ـ ان مارتن ترانمايل زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ليس مجرد حجة في الميدان الخلقي، ولكنه رجل فاضل علانية: فهو لايشرب ولا يدخن ولا يأكل اللحم ولا يستحم بالجليد في الشتاء وهذا لم يمنعه بعد ان قبض علينا بأمرمن الغيبو من دعوة عميل الغيبو النروجي جاكوب فريز ـ برجوازي بلا شرف وضمير ـ من الوشاية بي، ولكن هذا يكفي . .

إن أخلاق هؤلاء السادة تتألف من الشرائع التقليدية، التي تمثل مصالحهم ورغباتهم ومخاوفهم، وأغلبهم مستعد لرفض القناعات السائدة، والغدر والخيانة باسم طموحه، او نزواته. والغاية بالنسبة لهم تبرر أية وسيلة في مجال المصالح الشخصية المقدس، ولكنهم يحتاجون الى شرائع أخلاقية خاصة ومستمرة، ومرنة في الوقت نفسه لهذا السبب بالذات. إنهم يمقتون كل من يفضح أسرارهم المهنية للجماهير. وفي أوقات (السلم) يعبرون عن كراهيتهم بالتهجم بلغة فلسفية. وفي أوقات الصراعات الاجتماعية الحادة، كما هو الأمر في اسبانيا، فان هؤلاء الأخلاقيين، يقتلون الثوريين جنباً الى جنب مع الغيبو. ولكي يبررون انفسهم يكررون عبارة: (التروتسكية والستالينية صنوان) .

التواقف Interdependence الديالكتيكي للغاية والوسيلة

إن الوسيلة يمكن ان تبرر بغايتها فقط، ولكن الغاية بدورها بحاجة الى التبرير. والغاية، من وجهة النظر الماركسية التي تعبر عن المصالح التاريخية للبروليتارية، مبررة اذا ما كانت تؤدي الى سلطة الانسان على الطبيعة، والغاء سلطة الانسان على أخيه الانسان .

(ولكن هل نفهم من هذا ان أي شيء مباح من أجل الوصول الى هذه الغاية). هكذا يلح الجهلة بالسؤال باستهزاء مفصحين عن عدم فهمهم لشيء. ان المباح،

كما نجيبهم، هو ما يؤدي فعلا الى تحرير الجنس البشري. وما دامت هذه الغاية ممكنة التحقيق بواسطة الثورة، فإن أخلاقية البروليتارية المحررة، ذات طبيعة ثورية بالضرورة. إنها لا تجابه بشكل سافر العقائد الدينية المتحجرة فحسب، وإنما جميع التعاويذ المثالية. وتجابه الشرطة الفلسفية للطبقة الحاكمة، وهي تستنتج قاعدة السلوك من قوانين تطور المجتمع، أي من الصراع الطبقي بشكل رئيسي، من قانون جميع القوانين.

(ويستمر الأخلاقيون في السؤال باصرار: وما الفرق ؟ هل هذا يعني أن جميع الوسائل مباحة في الصراع الطبقي ضد الرأسماليين: أي الكذب والتلفيق والخيانة والقتل وهكذا) ونجيب على هذا بقولنا: ان الوسائل المباحة والتي لا غنى عنها هي تلك التي توحد البروليتارية الثورية وتملأ قلبها بعداوة للظلم لا هوادة فيها، وتعلمهم ازدراء الأخلاق الرسمية وطبولها الديمقراطيين، تشبعهم بوعي لرسالتهم التاريخية، ترفع من شجاعتهم وروح التضحية في نضالهم. ومن هذا بالذات يمنع قولنا بأنه ليست جميع الوسائل مباحة. وعندما نقول ان الغاية تبرر الوسيلة، فإن النتيجة التي تتبع ذلك بالنسبة لنا، هي ان الغاية الثورية العظيمة تطيح بتلك الوسائل التي توقع بين فريق من العمال ضد فريق آخر، او تحاول ان تجعل الجماهير سعيدة، دون مشاركتها، او تخفض من إيمان الجماهير بنفسها وبتنظيمها، مستبدلة ذلك بعبادة القادة.

إن الأخلاقية الثورية ترفض بشكل مبدئي ولا هوادة فيه التذلل من قبل البرجوازية، والغطرسة من جانب الكادحين، أي تلك الخصائص التي رسخ جذورها متعالمو البرجوازية الصغيرة وأخلاقيتها.

إن هذه المقاييس لا تقدم بطبيعة الحال جواباً جاهزاً، على السؤال عما هو مباح او غير مباح، في كل قضية منفصلة. إذ لا يمكن ان توجد أجوبة اوتوماتيكية على هذا النحو. فمشكلات الأخلاقية الثورية متصلة بمشكلات الاستراتيجية الثورية وتكتيكها. إن التجربة الحية للحركة في ظل نظرية واضحة، تقدم الجواب

الصحيح على هذه المشكلات .

والمادية الديالكتيكية لا تعرف ازدواج الوسيلة والغاية . فالغاية تنبع بشكل طبيعي من الحركة التاريخية؛ والوسيلة تابعة عضوياً للغاية، والغاية المباشرة تصبح وسيلة لغاية أبعد. إن فرديناند لاسال يتحدث على لسان احد أبطال مسرحيته (فرانزفون سيكينجن) قائلا :

(. . . أرني الهدف
ولكن أرني الطريق اليه ايضا
انهما لمتصلان بدرجة تجعل كلا منهما
دائم التبدل
وتظهر طرق أخرى وهدف آخر)

إن أبيات لاسال ليست كاملة على الاطلاق. وأسوأ منها حقيقة ان لاسال نفسه مختلف في سياسته العملية عن التعاليم المشروحة اعلاه. انه ليكفي ان نتذكر انه ذهب الى حد عقد اتفاقيات سرية مع بسمارك ! ولكن التواقف الديالكتيكي بين الغاية والوسيلة، معبر عنه بشكل صحيح كليا في الجمل التي أوردتها أعلاه. إن حبوب القمح يجب ان تبذر من أجل سنبلة القمح .

هل الارهاب الفردي مباح أو غير مباح من وجهة نظر (الأخلاق المحضة) ؟ إن هذا السؤال لا يهمنا أبدا بشكله المجرد هذا. وتكيل البرجوازية السويسرية المحافظة حتى الآن الثناء على الارهابي (وليم تل). إن عواطفنا منحازة كليا للارهابيين الارلنديين والروس والبولنديين والهندوس في نضالهم ضد الطغيان السياسي والقومي. وكيروف الطاغية الوقح الذي مات اغتيالا، لا يثير أية شفقة لدينا، وعلاقتنا بالقاتل تظل محايدة، لأننا لا نعرف الدوافع التي دعته لقتله. فاذا أصبح معلوماً ان نيقولايف قد تصرف كصاحب ضمير انتقم لحقوق العمال التي داسها كيروف بالأقدام، فإن عواطفنا ستكون القاتل كليا. ومع ذلك، فليس السؤال حول الدوافع الذاتية، وإنما الدوافع الموضوعية، هو الذي يحمل دلالة

حاسمة بالنسبة لنا. هل الوسائل المتوفرة قادرة على ان تؤدي بنا الى الهدف حقاً ؟ بالنسبة للارهابي الفردي تشهد النظرية والتجربة، ان هذه ليست القضية واننا لنقول للارهابي: انه لمن المحال الاستعاضة عن الجماهير، بالحركة الجماهيرية فقط يمكنك ان تجد التعبير عن بطولتك. ومع ذلك فضمن شروط الحرب الأهلية، يكف اغتيال الظالمين فرديا عن أن يكون ارهاباً فردياً. فاذا ما قلنا ان ثوريا ألقى قنبلة على الجنرال فرانكو وأركانه فمزقهم إرباً إرباً، فإن هذا بالكاد ان يثير الغضب الأخلاقي، حتى لدى الخصيان الديمقراطيين. ان تصرفاً مشابهاً سيبدو مناسباً كلياً من الناحية السياسية في ظروف حرب أهلية. وعلى هذا، فإن القوانين الأخلاقية المطلقة، يثبت بطلانها حتى عندما تصل المسألة الى اقصى حد لها: قتل انسان لإنسان آخر. وان التقويمات الأخلاقية جنبا الى جنب مع السياسة، تنبع من الحاجات الداخلية للصراع.

إن تحرير العمال يمكن ان يتم بواسطة العمال أنفسهم. ولذلك لا توجد جريمة أعظم من خداع الجماهير وتصوير الهزائم على انها انتصارات، والأصدقاء على انهم أعداء، ورشوة القادة العماليين واختلاق الأساطير، وتلفيق المحاكمات المزيفة، او بعبارة واحدة، القيام بما يفعله الستالينيون. إن هذه الوسائل يمكن ان تخدم غاية واحدة فقط، ألا وهي إطالة أمد سيطرة طغمة أدانها التاريخ، ولكنها لا يمكن ان تسهم في تحرير الجماهير، وهذا هو ما جعل الأممية الرابعة تخوض صراع حياة أو موت ضد الستالينية.

ليست الجماهير معصومة بطبيعة الحال، فتأليه الجماهير غريب عنا. لقد رأيناهم في شروط مختلفة، ومراحل مختلفة، وخلال أضخم الصدمات السياسية. لقد رأينا جوانبهم القوية والضعيفة، ووجد جانبهم القوي - تصميمهم، تضحيتهم، وبطولتهم - تعبيره الأوضح دائما في أوقات الثورة. وخلال هذه الفترة، قاد البلاشفة الجماهير. وبعد ذلك افتتح فصل تاريخي مختلف، عندما برز الجانب الضعيف من االمظلومينالى المقدمة، بنقص ثقافته وضيق أفقه العالمي.

وسرعان ما خاب أمل الجماهير التي أتعبها التوتر، ففقدت الأمل بنفسها ومهدت الطريق للارستقراطية الجديدة. وفي هذه الفترة وجد البلاشفة (التروتسكيين) أنفسهم معزولين عن الجماهير. والواقع أننا مررنا بدورتين تاريخيتين كبيرتين من هذا النوع: ١٨٩٧ ـ ١٩٠٥ ، سنوات مد الفيضان؛ ١٩٠٧ ـ ١٩١٣ سنوات الجزر؛ ١٩١٧ ـ ١٩٢٣ فترة اضطراب لا مثيل لها في التاريخ؛ وأخيراً فترة جديدة من الرجعية لم تنته حتى اليوم. وخلال هذه الأحداث الجسام، تعلم التروتسكيون إيقاع التاريخ، أي ديالكتيك الصراع الطبقي. كما أنهم تعلموا، كما يبدو، بدرجة معينة من النجاح كيف يخضعون خططهم وبرامجهم الذاتية لهذا الايقاع الموضوعي. لقد تعلموا ألا يسقطوا فريسة لليأس بسبب حقيقة كون قوانين التاريخ لا تعتمد على أذواقهم الفردية، ولا تخضع لمقاييسهم الخلقية الخاصة بهم. وتعلموا ان يخضعوا أذواقهم الفردية لقوانين التاريخ. كما تعلموا ألا يفزعوا امام أعتى الأعداء، اذا ما كانت قوتهم مناقضة لحاجات التطور التاريخي. انهم يعرفون كيف يسبحون ضد التيار، وهم قانعون قناعة عميقة ان الطوفان التاريخي الجديد سيحملهم الى الشاطىء الآخر. ولن يصل الجميع الى الشاطىء بل سيغرق الكثيرون. ولكن ان يسهم المرء في تلك الحركة بعينين مفتوحتين وارادة شديدة ـ ذلكم فقط هو الطريق الى أعلى درجات الاكتفاء الأخلاقي لدى كائن مفكر.

كويوكان د. ف. ١٦ شباط ١٩٣٨

حاشية: كتبت هذه السطور خلال أيام، كان ولدي يصارع فيها الموت دون علم مني. إنني أقدم لذكراه هذا العمل الصغير الذي آمل انه كان سيحوز على موافقته ـ لقد كان ليون سيدوف ثورياً حقيقياً يحتقر الفريسيين.

الخلقيون والمنافقون ضد الماركسية*
بائعو صكوك الغفران وحلفاؤهم الاشتراكيون
أو : طائر الكوكو في عش غريب

إن كراس أخلاقهم وأخلاقنا له مزية واحدة على الأقل: فقد أرغم بعض الجهلة والمنافقين على الكشف عن انفسهم كليا. وأول القصاصات من الصحف الفرنسية والبلجيكية التي تلقيتها تؤكد ذلك. ولكن أشد التعليقات من نوعها

---

* ليون تروتسكي (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠) هو الاسم المستعار لـ ليف دافيدوفيتش برونشتاين، ولد في اوكرانيا عام ١٨٧٩ واغتيل في المكسيك مضروبا ببلطة في رأسه. كما حوكم غيابيا في محاكمات موسكو السيئة السمعة عام ١٩٣٦ بتهمة التآمر ضد النظام الاشتراكي السوفيتي الستاليني وحكم عليه بالاعدام غيابيا.
كان تروتسكي يعتبر الرجل الثاني بعد لينين، بل كان البعض يعتبره الرجل الأول في الثورة الروسية، حتى ان إحدى الصحف الأمريكية نشرت نبأ الثورة في ٨ نوفمبر على صفحتها الأولى بعناوين تقول ان تروتسكي هو قائد تلك الثورة، وان لينين ليس سوى واجهة ظاهرية.
ويمكننا القول ان تروتسكي وقف في اوقات كثيرة موقف المعارضة من الماركسية ومن لينين وأخيراً من حكم ستالين، حتى أصبح رمزا للمعارضة في صفوف الحركة الثورية الاشتراكية الروسية، وتلتزم جميع الأحزاب الشيوعية بادانته وادانة افكاره ومواقفه. كما تعتبر التروتسكية في نظر الشيوعيين جريمة وخيانة.
وترجع جميع الخلافات بين تروتسكي ولينين وستالين في جذورها الى نظرية تروتسكي (الثورة الدائمة) وهي النظرية التي وضع خطوطها العامة في عام ١٩٠٥، ثم اخذ يطورها ويتوسع فيها حتى عام ١٩٣١، وظل يمتحن تطبيقها على تفسير أحداث الثورة الصينية، والثورة الاسبانية، وثورات المستعمرات، ومسار الثورة الاشتراكية السوفيتية نفسها حتى يوم مماته. وقد كون تروتسكي الأممية الرابعة بعد حل الدولية الثالثة، ولكن ما لبث ان اختلف مع الكثيرين من اعضاء هذه الدولية. وكما لاحظ القارىء فان تروتسكي يكتب بقلم من سيف.

(المترجم)

جلاء. المقال الذي ظهر في صحيفة لاكروا La Croix الفرنسية الكاثوليكية. إن هؤلاء السادة لديهم نظام خاص بهم، وهم لا يخجلون من الدفاع عنه، فهم ينافحون عن الأخلاقية المطلقة؛ وفوق كل هذا، فهم لا يؤيدون الجزار فرانكو، إنها إرادة الله. وخلف هؤلاء يقف منظف سماوي يجمع أوساخهم وينظفها خلال صحوهم. ولذلك فليس من المستغرب ان يحملوا على أخلاقية الثوريين الذين يأخذون المسؤولية على كواهلهم، واصفين إياها بأنها ليست ذات قيمة. بيد اننا لسنا مهتمين الآن ببائعي صكوك الغفران المحترفين، وإنما بالأخلاقيين الذين ينجحون بالعيش دون الله، بينما يحاولون ان يضعوا أنفسهم مكانه.

إن صحيفة بروكسل الاشتراكية (لو بوبل Le Peuple) ـ الشعب ـ قد نجحت في عدم العثور على شيء في كتابنا الصغير، باستثناء وصفة مجرمة لبناء زنزانات سرية من أجل تحقيق أحد أشد الأهداف لا أخلاقية، ألا وهو الهزء بكرامة البيروقراطية العمالية البلجيكية والسيطرة على مواردها. وقد يقال بالطبع في معرض الرد على هذا، بأن هذه البيروقراطية ملطخة بحوادث خيانة وغش وخداع لا يحصى (ما علينا إلا أن نستعيد تاريخ «لابور بانك Labor Bank!) وانها تخنق كل لمعة للفكر الانتقادي في الطبقة العاملة وان أخلاقيتها العملية ليست متفوقة بأي حال من الأحوال على الكهنوت الكاثوليكي، حليفها السياسي. ولكن المحدودي التعليم فقط هم الذين يذكرون مثل هذه الأشياء غير السارة. ثانيا، يحتفظ جميع هؤلاء السادة مهما كانت خطيئاتهم، يحتفظون بأعلى أسس الأخلاق كاحتياطي لهم. وهذه المسألة يعالجها هنري دومان Henri de Man شخصيا، فيرى اننا نحن البلشفيك لا نستطيع ان نتوقع الحصول على اية صكوك غفران.

وقبل ان ننتقل الى أخلاقيين آخرين، دعونا نتوقف لحظة عند كراس أصدره الناشرون الفرنسيون الذين أصدروا كتابنا. ان الكراس بطبيعته إما ان يقدم كتابا او يصف محتوياته بموضوعية. وأمامنا كراس من نوع مختلف كلياً، وأكتفي بايراد مثال واحد منه: (ان تروتسكي يؤمن بأن حزبه الذي كان في السلطة مرة وهو في المعارضة الآن قد مثل دائماً البروليتاري الحقيقي، ومثل الأخلاقية الحقيقية، ويستنتج

من ذلك على سبيل المثال: إن إعدام الرهائن يحمل معنى مختلفاً كلياً يعتمد ما إذا كان الأمر بالاعدام صادراً عن ستالين او تروتسكي). إن هذه العبارة المقتطفة كافية تماماً لتقويم المعلق الذي يختفي وراء الستار. ومن حق المؤلف الذي لا مراء فيه أن يشرف على كراس؛ إلا أن المسألة بالنسبة لهذه الحالة، هي أن المؤلف يقف على الطرف الآخر من المحيط ومن الواضح أن صديقاً ما يكسب من النقص في المعلومات لدى الناشر قد تحايل من أجل التسلل الى عش غريب، وضع فيه بيضته الصغيرة. ياه.! إنها لبيضة صغيرة جداً بطبيعة الحال، بيضة عذراء تقريباً. من هو مؤلف هذا الكراس، إنه فكتور سيرج الذي ترجم الكتاب، والذي يعتبر في الوقت نفسه من أشد النقاد له، يستطيع أن يقدم المعلومات. لن أكون مستغرباً إذا ما اتضح ان الكراس لم يكتبه فيكتور سيرج بطبيعة الحال، وإنما أحد تلاميذه الذين يقلدون أفكار أستاذهم وطريقته. ولكن ربما كان الأستاذ نفسه، أي فيكتور سيرج هو صديق المؤلف؟

أخلاق الهوتنتوت*

لقد استغل سوفارين Souvarine ومنافقون آخرون البيان الذي ورد في الكراس، والذي وفر عليهم مؤونة البحث. فإذا ما كان تروتسكي يحتفظ بالرهائن فهذا حسن، وإذا ما كان ستالين هو الذي يفعل ذلك فهذا سيء. وبالنسبة لمثل الأخلاق الهوتنتية، ليس من الصعب ان نجد مخرجاً للحنق النبيل، ومع ذلك، فليس ثمة ما هو أسهل من فضح خواء وتزييف هذا الحنق، اعتمادا على هذا المثال الذي سنذكره الآن. لقد أصبح فيكتور سيرج علانية عضوا في حزب .P.O.U.M وهو حزب كتالوني Catalan ـ من مقاطعة كتالونيا في اسبانيا ـ له قوات ميليشيا خاصة به، كانت في المقدمة خلال الحرب الأهلية الأسبانية. وفي الجبهة، كما هو معروف، يطلق الناس النار ويقتلون، ولذلك فقد يقال: (ان القتل بالنسبة لفيكتور سيرج يأخذ معنى مختلفاً كلياً، يعتمد على ما اذا كان الأمر

* الهوتنتوت Hottentot من سكان جنوب وجنوب غرب افريقيا الذين انقرضوا تقريباً على يدي الهولنديين. (المترجم).

قد أصدره الجنرال فرانكو أو زعماء حزب فيكتور سيرج). فإذا ما حاول أخلاقينا أن يفكر بمعنى أعماله، قبل ان يحاول إصدار التعليمات للآخرين، فإن من المحتمل ان يقول ما يلي: ولكن العمال الاسبان قاتلوا لتحرير الشعب، بينما قاتلت عصابات فرانكو لاستعباده! إن سيرج لن يكون قادرا على ابتكار جواب مختلف. وبكلمات أخرى، فإن عليه ان يكرر حجة الهوتنتوت* المتعلقة بتروتسكي والرهائن.

الرهائن مرة أخرى

ومهما يكن من أمر، لا بل من المحتمل ان أخلاقيينا سيرفضون الحديث بصراحة وسيتيهون على غير هدى: (إن القتل في الجبهة شيء وان تطلق النار على الرهائن شيء آخر!). إن هذه الحجة، كما سنثبت عما قريب، حجة سخيفة. ولكن دعونا نتوقف لبرهة على الأرض التي اختارها خصمنا. ان نظام الرهائن، كما يقال، لا أخلاقي في حد ذاته. حسن، هذا ما نريد ان نعرفه، ولكن هذا النظام قد اتبع في جميع الحروب الأهلية في التاريخ القديم والحديث. ومن الواضح انه ينبع من طبيعة الحرب الأهلية نفسها. ومن هذا المنطلق، من الممكن ان نستنتج نتيجة واحدة فقط، ونعني بذلك ان طبيعة الحرب الأهلية نفسها لا أخلاقية. ذلكم هو منطلق صحيفة لاكروا التي تعتقد ان من الضروري طاعة السلطة السائدة، بأن السلطة من عند الله. وماذا عن فيكتور سيرج؟ إنه لا يحمل وجهة نظر معتبرة. فأن يلقي المرء ببيضة صغيرة في عش صغير شيء، وان يحدد المرء موقعه بالنسبة لمشكلات تاريخية معقدة شيء آخر. وانني لأعترف بأن أولئك الذين لديهم أخلاقية متعالية، من أمثال أزانا Azana وكاباليرو Caballero ونيغرين Negrin وشركاه، كانوا ضد أخذ رهائن من المعسكر الفاشي. فبالنسبة للجانبين لديك برجوازيون مقيدون بقيود الأسرة والقيود المادية، ومقتنعون بأنه حتى في حال الهزيمة، فإنهم لن

---

* لن نعالج هنا تلك العادة القميئة، عادة الاشارة الى الهوتنتوتيين بازدراء من أجل الاشادة بأخلاق تجار العبيد من البيض. لقد عالجنا هذه المسألة في هذا الكراس بالشكل الكافي.

ينقذوا أنفسهم فقط، وإنما سيحتفظون بوجبات غذائهم من اللحم. لقد كانوا على حق بطريقتهم. إلا ان الفاشيين أخذوا رهائن من البرجوازيين الفاشيين، لأنهم كانوا يعلمون القدر من الذل الذي تنطوي عليه الهزيمة بالنسبة لهم ولأخوتهم في الطبقة، حتى لو كانت هذه الهزيمة جزئية وموقتة.

ولا يستطيع فيكتور سيرج نفسه ان يصرح تماماً بما يريد: هل يطهر الحرب الأهلية من نظام الرهائن، ام يطهر التاريخ البشري من الحرب الأهلية. إن الأخلاقي البرجوازي الصغير يعتقد انه غير قادر على معالجة الظواهر بالنسبة لعلاقاتها الداخلية. إن مسألة الرهائن اذا ما وضعناها جانبا بشكل مزيف، تشكل بالنسبة له مشكلة خلقية خاصة، مستقلة عن تلك الشروط العامة، التي تزيد من حدة النزاعات المسلحة بين الطبقات. إن الحرب الأهلية هي التعبير الأسمى عن الصراع الطبقي، فأن نحاول ان نخضعها لمقاييس مجردة، فإن هذا يعني في الواقع تجريد العمال من أسلحتهم، وهم يجابهون عدوا مدججا بالسلاح. إن الأخلاقي البرجوازي هو الأخ الأصغر للبرجوازي المسالم، الذي يريد (أنسنة) الحرب عن طريق منع استخدام الغازات السامة، وقصف المدن غير المحصنة الخ.. ان مثل هذه المناهج، من الناحية السياسية، إنما تخدم في ابعاد أفكار الناس عن الثورة، كطريق وحيدة لوضع حد للحرب.

فزع الرأي العام البرجوازي

إن الأخلاقي المحاصر بالتناقضات، ربما يحاول ان يناقش بقوله ان صراعاً مكشوفاً وواعياً بين المعسكرين شيء، وأن احتجاز غير المشتركين في الصراع شيء آخر. وهذه الحجة مع ذلك هي مجرد حرف غبي وممطوط للموضوع. ففي معسكر فرانكو حارب عشرات الآلاف الذين جندوا بالقوة، وقد أطلقت جيوش الجمهوريين على هؤلاء الأسرى التعساء، أسرى جنرال رجعي. فهل كان هذا أخلاقيا أم غير أخلاقي؟ وأكثر من ذلك فإن الحرب الحديثة، بما فيها من مدفعية بعيدة المدى، وقنابل غاز، وطيران، وتخريب، ومجاعات وحرائق وأوبئة، تعني

بـالضرورة فقـدان أرواح مئات الآلاف والملايين من الكهـول والأطفال الـذين لم يشتـركوا في الصـراع مباشـرة. إن الذين يؤسـرون هم مرتبـطون بقيود الـطبقـة والتضـامن العائـلي مع معسكـر من معسكرين عـلى الأقـل، أو مـع زعـماء هـذا المعسكر. وان الاختيار الواعي ممكن لدى أخـذ الرهـائن. إن قديفـة تقذف من بنـدقية او طـائرة، يمكن ان تـدمر العـدو والصديق عـلى حـد سـواء، او الآبـاء والأطفال. لماذا إذن يستثني أخلاقيون مسألة الرهائن ويغلقون أعينهم على مضمون الحرب الأهلية كلها؟ لأنهم ليسوا شجعاناً بما فيه الكفاية، وكيساريين فإنهم يخشون من تدمير الجسور مع الرأي العام الرسمي وبادانة نظام الرهائن يشعرون ان لديهم أصدقاء طيبين ضد البلاشفة، فهم يمارسون صمتا جباناً إزاء اسبانيـا. وسيستمر فيكتور سيرج بالاحتجاج على حقيقة ان العمـال الاسبان والفـوضويـين وأعضاء حزب P.O.U.M قد أخذوا رهائن، سيحتج على ذلك بعد عشرين عاما .

الشريعة الخلقية للحرب الأهلية

والى نفس الفئة تنتمي مجموعة أخرى من اكتشافات فيكتور سيرج، وأقصد بها ان انحطاط البلاشفة يبدأ من اللحظة التي أعطي فيها الشيكا* حق تقرير مصير الشعب من وراءالأبواب المقفلة. إن سيرج يعبث بفكرة الثورة ويكتب القصـائد عنها؛ إلا أنه عاجز عن فهمها كما هي .

إن المحاكمات العامة ممكنة فقط في ظروف نـظام مستقر . والحـرب الأهلية هي شرط عدم الاستقرار الأقصى للمجتمع والدولة. وكما أنه من المستحيـل ان ننشر خطط الدولة في الصحف، كذلك فإن من المستحيل ان نكشف بمحاكمات عامة عن شروط وظروف المؤامرات، ذلك ان هذه المؤامرة تتصـل اتصالا وثيقـا بمجـرى الحرب الأهليـة. ولا شك ان المحـاكمات السـرية قـد زادت كثيـرا من احتمال وقوع الأخطاء. وهذا يـدل فقط على ان من الصعب في ظـروف الحرب الأهلية ممارسة العدالة غير المتحيزة .

* الشيكا Cheka جهاز البوليس السري في الاتحاد السوفيتي، أنشىء عام ١٩١٨ ثم استبدل بالغيبو. (المترجم).



إننـا نقترح أن يعـين فيكتور سيـرج رئيسا للجنـة تتألف من مـارسيو بيفـر وسوفارين ووالدو فرانك وماكس ايستمان ومجدولين باز وآخـرين لوضـع شريعـة أخلاقية للحرب الأهلية؛ والشخصية العامة لهذه اللجنة واضحة مقدماً. الطرفان يتعهدان بعدم أخذ الأسرى، والمحاكمات العامة تظل دائرة؛ ومن أجـل ان تتم هذه المحاكمات على ما يرام، فان الحرية الكاملة للصحافة محفوظة خلال الحرب الأهلية، وقصف المدن ممنوع كليا باعتباره يرتبط بالعدالة وحرية الصحافة وعـدم خرق حرمة الأفراد. ولأسباب اخرى مشابهة يمنع استخدام المدفعية. وكما هو الأمر بالنسبة للبنادق، فإن القنابل اليدوية والحراب تؤثر تأثيراً مشؤوماً على المخلوقات البشرية، بقدر ما تؤثر على الديمقراطية بشكل عام. إن استخدام الأسلحة النارية في الحرب الأهلية ممنوع كلياً .

شريعة رائعة ! نـص عظيم لخطابة فيكتور سيرج ومجدولين باز ! ومع ذلك، فطالما ان هذه الشريعة تظل غير مقبولة كقاعدة للسلوك من قبل جميع المضطهِدين والمضطهَدين، فإن الطبقات المتخاصمـة ستسعى لنوال النصـر بأيـة وسيلة، بينما يستمر الأخلاقيون البرجوازيون بالتساؤل بـالضياع والارتبـاك بين المعسكـرين، وهم يتعاطفون ذاتيا مع المضطهدين - لا شك في ذلك. ولكنهم يظلون من الناحية الموضوعية أسرى أخلاقية الطبقة الحاكمة، ويسعون لفرضهـا على المضـطهَدين، بدلا من مساعدتهم على اتقان أخلاقية العصيان .

الجماهير لا علاقة لها بذلك مطلقاً!

لقد أوضح فيكتور سيرج عرضاً الأسباب التي أدت الى انهيار حزب البلاشفة، وهي: المركزية الشديدة، وعدم الثقة بالنضال الايديولوجي وانعدام الروح المحبة للحرية. فمزيداً من الثقة بالجماهير، مزيدا من الحرية! كـل ذلك خـارج الزمـان والمكان. غير ان الجماهير ليست متشابهة عـلى الاطلاق، فهنـاك جماهـير ثوريـة، وجماهير سلبية، وجماهير رجعية. والجماهير نفسها تستلهم، خلال أوقات مختلفة، أمزجة وأهدافاً مختلفة. ولهذا السبب نفسه يبدو وجود منظمة مركزية للطليعة أمر لا

غنى عنه. فالحزب الواحد فقط والذي يستخدم السلطة التي فاز بها، قادر على التغلب على ذبذبة الجماهير. فإن نحيط الجماهير بهالات من القداسة، وان نخفض برنامجنا الى مستوى (الديمقراطية) غير المحدودة، معناه ان نحل أنفسنا في الطبقة كما هي، وان نتحول من طليعة الى مؤخرة، وبالتالي ان نتخلى عن مهمات الثورة. ومن جهة اخرى، فإذا ما كانت ديكتاتورية البروليتارية تعني أي شيء على الاطلاق، فإنها تعني عندئذ ان طليعة الطبقة مسلحة بموارد الدولة من أجل درء الأخطار، بما في ذلك الأخطار التي تنطلق من الصفوف الخلفية للبروليتارية نفسها. كل ذلك أساسي وكل ذلك اوضحته تجربة روسيا وأكدته تجربة اسبانيا.

إلا ان السر كله هو ان مطالبة فيكتور سيرج بالحرية (للجماهير) تعني في الواقع الحرية لنفسه ولرفقائه، الحرية من كل سيطرة ونظام، والحرية من النقد إذا أمكن ذلك. إن (الجماهير) لا علاقة لها بذلك مطلقاً، وعندما يتأرجح ديمقراطيونا من اليمين الى اليسار، ومن اليسار الى اليمين زارعين الشك والاضطراب، يتخيل ان ذلك يعني تحقق حرية الفكر. ولكن عندما نقوّم منطلقين من منطلق ماركسي، فإن الحكم على ذبذبة مثقف برجوازي صغير مصاب بخيبة الأمل، يبدو بالنسبة له بمثابة اعتداء على فرديته، ثم ما يلبث ان يدخل في تحالف مع جميع المشوشين لشن حملة صليبية ضد طغياننا وتعصبنا المذهبي.

إن الديمقراطية الداخلية لحزب ثوري ليست هدفا في حد ذاتها. فمن الواجب ان تدعم وتربط عن طريق المركزية. فبالنسبة للماركسي كان السؤال دائماً: الديمقراطية لأي شيء ؟ ولأي برنامج؟ إن إطار البرنامج هو إطار الديمقراطية في الوقت نفسه. لقد طالب فيكتور سيرج من الأممية الرابعة ان تعطي حرية العمل لجميع المشوشين والمتعصبين المذهبيين ومركزيي P.O.U.M من أمثال فيريكن Vereecken ومارسيو بيفر Marceau Pivert وللبيروقراطيين المحافظين من امثال سنيفلييت Sneevliet او للمغامرين من أمثال ر. مولينييه R. Molinier. ومن جهة أخرى ساعد فيكتور سيرج بشكل منظم، ساعد المنظمات المركزية على ان تطرد

من بين صفوفها انصار الأممية الرابعة. اننا منسجمون كليا مع الديمقراطية، فهي مسالمة ومطيعة، وتميل نحو اليمين. وفي الوقت نفسه فإنها ضرورية وحقودية ومخادعة باتجاه اليسار- انها تمثل نظام الدفاع عن النفس لدى مركزية البرجوازية الصغيرة .

الصراع ضد الماركسية

إذا كان موقف فيكتور سيرج من المشكلات النظرية، كان جاداً، فإنه سيشعر بالحرج من الظهور في المقدمة كمبتكر أفكار؛ وان يعود بنا الى برنشتاين Bernstein وستروف Struve وجميع المراجعين في القرن الماضي الذين حاولوا الصاق الكنطية بالماركسية، او بكلمات أخرى؛ إخضاع النضال الطبقي للبروليتارية الى مبادىء ترتفع عنه. وكما فعل كنط نفسه، اعتبروا «الأمر المطلق» (فكرة الواجب) مقياساً مطلقاً للأخلاق يسري على الجميع. والواقع ان المسألة مسألة (واجب) بالنسبة لمجتمع برجوازي. وقد كان لدى كل من برنشتاين وستروف وفورلاندر Vorlander، كان لهم موقف من النظرية على طريقتهم الخاصة. فقد دعوا علانية للعودة الى كنط. إن فيكتور سيرج ورفاقه لا يشعرون بأبسط المسؤوليات تجاه الفكر العلمي، إنهم يقصرون أنفسهم على الخيالات والاستعارات، وعلى التعميمات الأدبية في أفضل الأحوال. ومع هذا، فإذا ما امتحنت أفكارهم فإنهم يبدون وقد انضموا لقضية قديمة، يثبت بطلانها منذ زمن طويل: إخضاع الماركسية بالكنطية، شل الثورة الاشتراكية بواسطة (المقاييس المطلقة)، التي تمثل في الواقع التعميمات الفلسفية للمصالح البرجوازية - وهذه ليست برجوازية يومنا هذا، وإنما برجوازية فترة التجارة الحرة والديمقراطية. إن البرجوازية الامبريالية تلتزم بهذه المقاييس بقدر أقل من ذلك الذي التزمت به حقوقها الليبرالية، وهي تنظر بعطف الى محاولات المبشرين البرجوازيين الصغار، باشاعة الارتباك والفوضى والتذبذب بين صفوف البروليتارية الثورية. إن الهدف الرئيسي لهتلر والليبراليين والديمقراطيين هو التهجم على البلشفية، في وقت تهدد فيه شريعتها التاريخية بأن تصبح بشكل مطلق للجماهير البلشفية، الماركسية - ذلكم هو العدو !

عندما زيف (الأخ) فيكتور باش Victor Basch* الكاهن الأعظم لـلأخلاق الديمقراطية بمساعـدة (أخيه) روزنمـارك Rosenmark وذلك دفـاعاً عن محـاكمات موسكو، فضح علانية. وعندما أدين بتهمة التزوير، دق على صدره وصاح: (هل انا متحيز إذن ؟ لقد استنكرت دائماً إرهاب لينين وتروتسكي). لقد فضح بـاش الـدافع الـداخلي لأخـلاقيي الديمقـراطية، فبعضهم قـد يصمت عن محـاكمـات موسكو، والبعض الآخر قد يهاجم المحاكمات، وهناك من يـدافع عنهـا. إلا أن اهتمـامهم الرئيسي ينصب عـلى استخدام المحـاكمات لادانـة (أخلاقيـة) لينـين وتروتسكي،أي الطرق التي تلجأ اليها الثورة البروليتارية. وفي هـذا المجال يبـدو الجميع أشقاء.

لقد ذكر في الكراس المليء بالفضائح، والذي نظرنا فيـه آنفا، أنني (أؤسس نفسي على لينين)، وهذه العبارة غير المحدودة، والتي ترددت في منشورات أخرى، يمكن ان تعني انني طورت أسس لينين النظرية. ولكن مـا أعلمه هـو ان لينين لم يكتب عن الأخلاق. لقد تمنى فيكتور سيرج في الواقع ان يقول شيئاً مختلفاً كلياً، وأعني بذلك ان أفكاري اللا أخلاقية هي تعميم لسلوك لينين (اللا أخلاقي) وهو يحاول الطعن بشخصية لينين، عن طريق استخدام أحكامي، والطعن بأحكامي عن طريق استخدام شخصية لينين. إنه ببساطة يدخل السرور على الرجعية التي تعادي البلشفية والماركسية بشكل عام .

سوفارين المنافق

إن بـــطل السلم السـابق، والشيـــوعي السـابق، والتـــروتسكي السـابق، والشيوعي الديمقراطي السابق، والمـاركسي السابق . . لا بـل سوفـارين السابق يحمل على الثورة البروليتارية والثوريين بقدر من الصفاقة، يعظم كلما قلت معرفته لما يريـد. ان هـذا الـرجـل يحب ويعـرف كيف يجمـع المقتـطفـات والـوثـائق،

* فيكتـور باش هـو رئيس عصبة حقـوق الانسان في فـرنسا، وهي منظمة للبـرجوازيـين، والبرجـوازيـين الصغـار. وروزنمارك أحد اعضائها، محام استخدمـه الستالينيـون لتبرئـة محاكمـات موسكـو التي حدث ان حضـرها مثله في ذلك مثل الانكليزي (بريت).

والفواصل، والأقواس، وكيف يرتب الملفات. وأكثر من ذلك فهو يعرف كيف يمسك بالقلم. ولقد تمنى منذ البداية ان هذا المتاع سوف يكفيه طيلة حياته، إلا أنه سرعان ما اضطر الى اقناع نفسه، بأنه يحتاج بالاضافة الى ذلك، الى القدرة على التفكير. ان كتابه عن ستالين، على الرغم من توفر المقتطفات والحقائق الهامة، ما هو إلا شهادة ذاتية على فقره. إن سوفارين لا يفهم ما هي الثورة ولا الثورة المضادة، انه يطبق على العملية التاريخية مقياس معقل صغير، تؤرقه دائما الانسانية الخاطئة. والتناقض بين روحه الانتقادية وعجزه عن الخلق يستهلكه وكأنه الأسيد. ومن هنا يبدو نزقه وبرمه الدائم، وفقدانه للأمانة المبدئية في تقويم الأفكار والبشر والحوادث، بينما يغطي ذلك كله باضفاء ستار أخلاقي جاف. وكما هو الأمر بالنسبة لجميع الكارهين للبشر والكلبيين، فان سوفارين منجذب عضوياً باتجاه الرجعية.

هل انشق سوفارين علانية عن الماركسية؟ إننا لم نسمع عن ذلك، إنه يفضل المواربة والمراوغة، فهذا هو عنصره الأساسي. لقد كتب في مراجعته لكراسي قائلا: (ان تروتسكي يمتطي مرة اخرى حصان الصراع الطبقي الذي يستهويه). وبالنسبة لماركسي الأمس، فان الصراع الطبقي هو: (حصان تروتسكي). انه ليس بالأمر الذي يدعو للدهشة ان سوفارين نفسه فضل ان يتخطى كلب الأخلاق الأزلية الميت، وهو يعارض الفكرة الماركسية القائلة بوجود (إحساس بالعدالة دونما اهتمام بالفوارق الطبقية). إنه لمما يحمل العزاء ان نعلم ان مجتمعنا قائم على (الاحساس بالعدالة)، ان سوفارين سيصل باكتشافه الى مدى أبعد بلا شك في الحرب القادمة، سيصل باكتشافه الى الجنود في الخنادق، وعند ذلك يستطيع ان يفعل الشيء نفسه مع مشلولي الحرب الأخيرة، والعاطلين عن العمل، والأطفال الذين تخلى عنهم ذووهم، والعاهرات. إننا نعترف مقدما أنه إذا ما تعرض للأذى فيما هو ملتزم على هذا النحو، فإن (إحساسنا بالعدالة) لن ينحاز الى جانبه.

إن الملاحظات الانتقادية لهذا المدافع عن العدالة البرجوازية الفاقد للحياء، (دونما اهتمام بالفوارق الطبقية) تعتمد كلياً على الكراس الذي استلهمه من

فيكتـور سيرج. وهـذا الأخير في كـل محاولاتـه للتنظير، لا يـذهب الى أبعد من الاستعارة الهجينة من سوفارين، الذي يمتلك مع ذلك المزية التالية: انه يتفوه بما لم يجرؤ سيرج على التفوه به بعد.

يكتب سوفارين بلهجة تتصنع الاستياء ـ لا يوجد شيء من الأصالة فيه ـ قائلاً انه بقدر ما يدين تروتسكي أخلاقية الديمقراطيين والاصلاحيين والستالينيين والفوضويين، فإن هذا يعني ان ممثل الأخلاقية الوحيد هو (حزب تروتسكي). وما دام حزبه غير موجود، فان رمز الأخلاق، في التحليل الأخير هو تروتسكي نفسه. كيف بوسع المـرء ان يتصنع الابتسـام إزاء هذا؟ إن من الـواضح ان سـوفارين يتخيل انه قادر على التمييز بين ما هو موجود، وبين ما هو ليس موجوداً. إنها لمسألة بسيطة جدا طالما انها مسألة بيضة مخفوقة، او زوج من الحمالات. إلا ان مثل هذا التمييز بالنسبة لمقياس العملية التاريخية، يتميز من الوضوح من انه يقع على رأس سوفارين. إن (ما هو موجود) يخلق أو يموت، يتطور او يتفتت، ومـا هو مـوجود يمكن فهمه من قبله فقط باعتباره يفهم اتجاهاته الداخلية.

إن عدد الناس الذين تسنموا مركزا ثوريا لدى اندلاع الحرب الأخيرة، يمكن ان يعدوا على أصابع اليد الواحدة. لقد كان حقل السيـاسة الـرسمية كله مفعـماً تقريباً بظلال مختلفة من الشوفينية. وقد بدا لايبكنيشت Liebknecht ولـوكسمبرغ Luxemburg ولينين أفرادا عاجزين ومعزولين، ولكن هـل هناك أي شـك في ان اخـلاقيتهم كانت تفـوق الأخلاقيـة الحيـوانيـة (للحلف المقـدس). ان سيـاسـة لايبكنيشت الثورية، لم تكن (فردية) إطلاقا كما بدا آنذاك للجاهل الوطني العادي. وعلى العكس من ذلك، فقد عكس لايبكنيشت، لايبكنيشت وحده التيارات الأساسية الخفية لدى الجماهير؛ ومجرى الأحداث اللاحقة أكد ذلك كلياً. ألا نخشى اليوم القطيعة الكاملة مع الرأي العام الرسمي من أجل أن نكسب في الغد حق التعبير عن أفكار ومشاعر الجماهير الثائرة، هو الشكل الخاص للوجود الذي يختلف عن الوجود التجريبي للتقليديين البرجوازيين الصغار. إن جميع أحزاب

المجتمع الرأسمالي، وجميع أخلاقييه ومنافقيه سيتلاشون تحت وقع الكارثة. والحزب الوحيد الذي سينجو هو حزب الثورة العالمية الاشتراكية، على الرغم من أنه يبدو موجوداً اليوم بالنسبة للمعلقين القصيري النظر، كما بدا لهم خلال الحرب الأخيرة، إن حزب لينين ولايبكنيشت غير موجود.

ثوريون وحاملو وباء

كتب انجلز مرة انه هو وماركس ظلا طيلة حياتهما مع القلة وشعرا بالسعادة بذلك. ان الفترات التي ترتفع فيها الطبقات المضطهدة في عداد الى مستوى المهمات العامة للثورة، تمثل اندر الاستثناءات في التاريخ، ذلك ان هزائم المضطهدين أكثر عددا من انتصاراتهم. وبعد كل هزيمة تأتي فترة طويلة من الرجعية تلقي بالثوريين الى الوراء في حالة من الانعزال الحاد. وأشباه الثوريين (فرسان الساعة) كما دعاهم شاعر روسي، أما ان يخونوا قضية المضطهدين علانية في مثل هذه الفترات، او يبدأون البحث عن معادلة للخلاص تسمح لهم بتجنب القطيعة مع أي من المعسكرين. إنه لمن غير الممكن في زماننا ان نعثر على معادلة مسالمة في مجال الاقتصاد السياسي او علم الاجتماع، والتناقضات الطبقية قد أطاحت الى الأبد بمعادلة (الانسجام) التي يطرحها الاصلاحيون الليبراليون والديمقراطيون. ويظل هناك مجال الأخلاق الدينية والمتعالية. لقد حاول (الثوريون الاجتماعيون) الروس انقاذ الديمقراطية بالتحالف مع الكنيسة. ان مارسيو بيفر يستبدل الكنيسة بالأخوة الماسونية. ومن الواضح ان فيكتور سيرج لم ينضم الى هذه الكتلة، إلا انه لم يجد صعوبة في العثور على لغة مشتركة مع بيفر ضد الماركسية.

هناك طبقتان تقرران مصير المجتمع الحديث: الطبقة البرجوازية والطبقة البروليتارية. وآخر ملجأ للبرجوازية هو الفاشية التي تستبدل المقاييس الاجتماعية والتاريخية بمستويات حيوانية لكي تعفي نفسها من كل قيد في صراعها من أجل الملكية الرأسمالية. ويمكن انقاذ الحضارة عن طريق الثورة الاشتراكية فقط. ومن

أجل تحقيق الانقلاب المنشود تحتاج البروليتارية الى كل قوتها وعزمها ومضائها وعنفوانها وقسوتها. وفوق كل هذا، يجب ان تكون متحررة كليا من خرافات الدين، والديمقراطية والأخلاقية المتعالية يجب ان تتحرر من القيود الروحية التي خلفها العدو لترويضها واستعبادها، كلما يمهد الطريق كلية للاطاحة بوحشية الامبريالية الأخلاقية، ولا شيء غير ذلك. سلامة الثورة فقط: ذلكم هو القانون الأسمى.

إن الفهم الواضح للعلاقة الداخلية بين طبقتين اساسيتين - البرجوازية والبروليتارية في فترة صراعهما المميت - يوضح لنا المعنى الموضوعي لدور الأخلاقيين البرجوازيين الصغار. ان سمتهم الغالبة هي العجز: العجز الاجتماعي بسبب التدهور الاقتصادي للبرجوازية الصغيرة؛ العجز الايديولوجي بسبب خوف البرجوازية الصغيرة من إثارة الصراع الطبقي المرعب. ومن هنا يبدو حرص البرجوازية الصغيرة المتعلمة والجاهلة على كبح جماح الصراع الطبقي. فإذا ما كان البرجوازي عاجزاً عن النجاح في مسعاه باستخدام الأخلاق المطلقة، فإنه يلقي بنفسه في أحضان الفاشية التي تكبح الصراع الطبقي بواسطة الأساطير وفأس الجلاد. إن أخلاقية فيكتور سيرج وزملائه هي جسر العودة من الثورة الى الوراء. وقد أصبح سوفارين على الطرف الآخر من الجسر فعلا، وأية تنازلات لهذه الميول تمثل بداية الاستسلام للرجعية. فلندع حاملي الوباء هؤلاء يستخلصون قواعد الأخلاق من هتلر وموسوليني وتشمبرلين ودالادييه. أما بالنسبة لنا فان منهاج الثورة البروليتارية يكفي.

كويوكان د. ف. ٩ حزيران ١٩٣٩

الوسائل والغايات*

جون ديوي

إن علاقة الوسائل بالغايات قد كانت لوقت طويل موضوعاً رئيسياً في الاخلاق، كما أنها كانت موضوعاً ملحاً في النظرية السياسية وتطبيقها. وبالنسبة للناحية الأخيرة تركزت المناقشة حول التطورات الأخيرة في الاتحاد السوفيتي. وقد دافع عن الاتجاه الستاليني عدد من المؤمنين به في البلدان الأخرى، على اساس ان عمليات التطهير والاضطهادات كانت ضرورية، حتى مع وجود قدر معين من التلفيق، وذلك من أجل الحفاظ على النظام الاشتراكي في تلك البلاد. وقد استخدم آخرون الاجراءات التي قامت بها البيروقراطية الستالينية لادانة السياسة

* حتى نتعرف بشكل دقيق على أفكار ديوي لنأخذ فكرته الاساسية في ميدان اكثر تحديدا هو ميدان الأخلاق بجانبيه النظري والعملي. فموضوع الأخلاق هو سلوك الناس، وغرضها هو ان نضع على نحو عام الفارق بين السلوك الحميد والسلوك السيء، ويترتب على ذلك في نظر ديوي أن المهمة الأولى للأخلاق هي أن نتفهم طبيعة هذه الكائنات العضوية البيولوجية التي يتألف من مجموع سلوكها السياق الاجتماعي، والمهمة الثانية للأخلاق هي ان تتفهم انواع المواقف المشكلة التي تدفعنا الى ان نحاول التفرقة بين السلوك الحميد والسلوك السيء، ومتى قمنا بهاتين المهمتين وليس قبل ذلك ـ نكون في وضع يتيح لنا ان نضع الفارق بين (الخير والشر). للمزيد من الاطلاع يراجع:

J. Dewey: The Theory of Enquiry. Allen and Unwin, London and New York, 1939

الماركسية على أساس انها تؤدي الى ألوان من التطرف، على غرار ما حدث في الاتحاد السوفييتي، وذلك لأن الماركسية تعتقد ان الغاية تبرر الوسيلة. وقد آمن بعض اولئك النقاد انه ما دام تروتسكي ماركسيا أيضاً، فإنه ملتزم بالسياسة نفسها، وبالتالي لو كان تروتسكي في الحكم، فانه كان سيشعر بأنه مضطر لاستعمال اية وسيلة تبدو ضرورية لتحقيق الغاية المتعلقة بدكتاتورية البروليتارية.

وقد كان للمناقشة نتيجة نظرية مفيدة واحدة على الأقل، فقد كشف لأول مرة عن مناقشة جلية لماركسي رصين حول علاقة الوسائل بالغايات في العمل الاجتماعي* . وبناء على الدعوة الكريمة لأحد المشرفين على هذه المجلة، أريد مناقشة هذه المسألة على ضوء مناقشة تروتسكي لتواقف Interdependence الوسائل والغايات. والقسم الأعظم من مطلع هذا المقال لا يدخل بالتالي ضمن مناقشتي، هذا على الرغم من أنني أستطيع أن أقول معتمداً على برهان «وأنت أيضا يا بروتوس» (التي يثيرها العنوان)، ان تروتسكي لم يجد كبير عناء في الايضاح بأن بعض نقاده قد تعرفوا بالطريقة نفسها التي ينسبونها اليه. وما دام تروتسكي يوضح ايضا ان المركز البديل الوحيد لفكرة الغاية تبرر الوسيلة، هي شكل من أشكال الأخلاق المطلقة يعتمد على التحرر من الضمير، او الحس الخلقي، او بعض أنواع الحقائق الخالدة. وأرغب بالقول انني اكتب منطلقا من كوني أرفض جميع هذه العقائد بنفس الدرجة التي يكرهها بها تروتسكي نفسه. وإنني اعتقد بأن الغاية من ناحية التسلسل تقدم الأساس الوحيد للأفكار الخلقية والعمل، وبالتالي فهي تقدم التبرير الوحيد الذي يمكن إيجاده للوسائل المستخدمة .

والنقطة التي أقترح معالجتها هي تلك التي أثيرت في نهاية مناقشة السيد تروتسكي في القسم المعنون بـ (التواقف الديالكتيكي للغاية والوسيلة). ان البيان التالي أساسي: (ان الوسيلة يمكن ان تبرر بغايتها فقط، ولكن الغاية بدورها

---

* أخلاقهم وأخلاقنا، بقلم ليون تروتسكي . النيوناشيونال، حزيران ١٩٣٨م صفحة ١٦٣ ـ ١٧٣ . (المترجم)

بحاجة الى التبرير. والغاية من وجهة النظر الماركسية التي تعبر عن المصالح التاريخية للبروليتارية، مبررة إذا ما كانت تؤدي الى سلطة الانسان على الطبيعة، والغاء سلطة الانسان على أخيه الانسان). وهذه الزيادة في سلطة الانسان على الطبيعة، يرافقها الغاء سلطة الانسان على الانسان، تبدو الغاية، وأعني بذلك الغاية التي لا تحتاج الى ان تبرر في حد ذاتها، وإنما هي تبرير الغايات التي بدورها وسائل لها. ويمكن ان نضيف ايضا أن آخرين غير الماركسيين قد يقبلون بمعادلة الغاية هذه ويعتبرون انها تعبر عن المصالح الخلقية للمجتمع ـ اذا لم نقل المصالح التاريخية ـ وليس مصالح البروليتارية فقط.

إلا أن من الهام بالنسبة لهدفي الآن ان نلاحظ بأن كلمة (غاية) استخدمت هنا لتغطي شيئين: الغاية المبررة الأخيرة، والغايات التي هي في حد ذاتها وسائل لهذه الغاية الأخيرة. ذلك انه في الوقت الذي لم يتضح فيه لعدد كاف من الكلمات ان بعض الغايات ليست سوى وسائل، فان هذا الاقتراع متضمن بالطبع في البيان القائل: (إن بعض الغايات تؤدي الى زيادة سلطة الانسان على الطبيعة الخ.) ويمضي تروتسكي ليوضح بأن المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة لا يعني ان كل وسيلة مباحة (ان ما هو مباح، هكذا نجيب، هو ما يؤدي فعلا الى تحرير الجنس البشري).

إذا ما التزمنا بهذا الرأي الأخير وقمنا بتمحيصه، فسيكون منسجماً مع المبدأ الشهير لتوافق الوسيلة والغاية. وهذا يؤدي الى قيامنا بتدقيق الوسائل التي استخدمت لكي نثبت ما ستكون عليه نتائجها الموضوعية، بالقدر الذي يكون فيه ذلك ممكناً، من الناحية الانسانية ـ لنوضح انها تؤدي فعلا الى تحرير الجنس البشري. عند هذه النقطة يصبح المغزى المزدوج للغاية هاماً. فطالما انها تعني النتائج التي جرى التوصل اليها فعلا، فان من الواضح اعتمادها على الوسائل المستخدمة، بينما تعتمد الاجراءات التي تعتبر بمثابة وسائل، على الغاية، بمعنى انها يجب ان ينظر اليها ويحكم عليها على اساس نتائجها الموضوعية مباشرة. وعلى هذا

الأساس، فإن الغاية الموضوعية نصب أعيننا تمثل، أو هي في حد ذاتها فكرة النتائج النهائية، في حال كون الفكرة قد تشكلت على اساس الوسائل التي تعتبر أقرب الوسائل لتحقيق الغاية. وعلى ذلك فالغاية التي هي في حد ذاتها وسيلة لتوجيه العمل، تماماً كما ان فكرة انسان ما عن الصحة التي يريد اكتسابها، أو البيت الذي يريد بناءه، ليست مطابقة للغاية بمعنى النتائج المباشرة، ولكنها وسيلة لتوجيه العمل من اجل تحقيق تلك الغاية.

وأما السبب الذي أعطى مقياس (والتطبيق المنبثق عنه) الغاية تبرر الوسيلة اسما سيئا، هو ان الغاية التي هي نصب أعيننا، الغاية التي نؤمن بها (ونعتنقها ربما بإخلاص) تبرر استخدام وسائل معينة، وبذلك تبرر انه ليس من الضروري ان نمحص ما ستكون عليه النتائج المباشرة لاستخدام الوسائل الممتازة. وقد يؤمن فرد ما باخلاص ان بعض الوسائل ستؤدي فعلا الى الغاية المتوخاة والمرغوب فيها. غير ان المسألة الحقيقية ليست مسألة اعتقاد شخصي، وإنما مسألة الأسس الموضوعية التي يستند عليها هذا الاعتقاد، وأعني بذلك النتائج التي ستتسبب عنها مباشرة. وهكذا فعندما يقول السيد تروتسكي ان (المادية الديالكتيكية لا تعرف ثنائية بين الوسيلة والغاية) فان التفسير الطبيعي لذلك هو انه يدعو لاستخدام الوسائل التي يمكن ان يبدو من طبيعتها انها تؤدي الى الجنس البشري كنتيجة موضوعية.

ومن هنا فإن المرء ليتوقع ان يوجد مع فكرة تحرير الجنس البشري كغاية، موضوعة نصب أعيننا، سيكون هناك تمحيص لجميع الوسائل التي يمكن ان تحقق هذه الغاية، دونما أفكار مسبقة عما يجب ان تكون عليه، وان اية وسيلة مقترحة ستوزن ويحكم عليها حسب النتائج التي يحتمل أن تؤدي إليها.

ولكن هذا ليس هو السبيل الذي اتبعه تروتسكي في مناقشته. فهو يقول: (ان الأخلاق المحورة للبروليتارية ذات طبيعة ثورية، فهي تستنتج قاعدة للسلوك من قواعد تطور المجتمع، اي من النضال الطبقي قانون جميع القوانين). فكأنه

لكي يقطع دابر كل شك حول المعنى الذي قصده، يقول (الغاية تنبع من الحركة التاريخية)، أي الصراع الطبقي. إن مبدأ توافق الوسيلة والغاية قد اختفى على هذا الأساس او أغرق على الأقل. ذلك ان اختيار الوسيلة لا يثور على أساس فحص مستقل للوسائل والسياسات بالنسبة لنتائجها الموضوعية المباشرة. وعلى العكس من ذلك، فإن الوسائل تستنتج من مصدر مستقل، مما يزعم بأن قانون التاريخ، هو قانون جميع قوانين التطور الاجتماعي. كما ان منطق المسألة لا يتبدل في حال شطبنا على كلمة (ما يزعم). ذلك انه حتى في هذه الحال. فان الوسائل التي تستخدم ليست مستمدة من اعتبارات الغاية وهي تحرير الجنس البشري، وإنما من مصدر خارجي آخر. وعلى هذا، فإن الغاية المتوخاة، الغاية الموضوعة نصب العينين، تحرير الجنس البشري، خاضعة للصراع الطبقي، كوسيلة يمكن بها التوصل اليه. وبدلا من توافق الوسيلة والغاية. فان الغاية تعتمد على الوسائل، إلا أن الوسائل ليست مستمدة من الغاية. وما دام الصراع الطبقي يعتبر الوسيلة الوحيدة التي يمكن التوصل بها الى الغاية، وما دامت الفكرة القائلة بأنه الطريق الوحيد، قد جرى التوصل اليها بطريق الاستنتاج، وليس عن طريق التمحيص الاستدلالي للوسائل - النتائج في توافقها. فإن الوسائل، اي الصراع الطبقي، لا تحتاج الى التمحيص الانتقادي بما يتعلق بنتائجها الموضوعية المباشرة. انها مبرأة اوتوماتيكيا من كل حاجة للتمحيص الانتقادي. فاذا لم نعد بذلك الى الوضع الذي تصبح فيه الغاية المتوخاة (المتميزة عن النتائج الموضوعية) تبرر استخدام أية وسيلة تتفق والصراع الطبقي، وان تبرر اهمال جميع الوسائل الأخرى فإنني لعاجز عن فهم منطق وضع السيد تروتسكي.

إن الوضع الذي أوضحته، وضع التوافق الحقيقي للوسائل والغايات لا يستبعد بشكل اوتوماتيكي الصراع الطبقي كوسيلة لتحقيق الغاية. ولكنه يستبعد فعلا الأسلوب الاستنتاجي للوصول اليه كوسيلة. هذا اذا لم نقل شيئاً عن كونه الوسيلة الوحيدة. ان اعتبار الصراع الطبقي وسيلة يجب تبريره على أساس توافق الغاية والوسيلة، وتمحيص النتائج المباشرة لاستخدامها، ليس بطريقة استنتاجية.

والاعتبارات التاريخية متعلقة بهذا التمحيص بطبيعة الحال، إن افتراض قوانين ثابتة للتطور الاجتماعي ليس وارداً. فكأننا نريد لعالم احياء او طبيب ان يؤكد قانونا معيناً لعلم الأحياء يؤمن به، يتعلق بغاية الصحة الى الحد الذي يجعل بالإمكان ان نستنتج من الوسيلة التي يتوصل بها الى الصحة ـ الوسيلة الوحيدة بحيث انه لا حاجة لدراسة أبعد للظاهرة البيولوجية . ان القضية كلها محكوم عليها سلفاً .

فأن تقول ان الصراع الطبقي وسيلة لتحقيق غاية تحرير الجنس البشري شيء، وان تقول ان هناك قانوناً مطلقاً للصراع الطبقي يقرر الوسيلة التي يجب استخدامها شيء آخر. ذلك انه إذا ما كان يقرر الوسيلة فإنه يقرر الغاية أيضاً ـ النتيجة المباشرة. وبناء على مبدأ التواقف الحقيقي للوسيلة والغاية، فإنه لمن التعسف والذاتية القول بأن النتيجة ستكون تحرير الجنس البشري. إن تحرير الجنس البشري هو الغاية التي نتوق اليها، وهي غاية أخلاقية بأي معنى مشروع (للأخلاق). ولا يوجد أي قانون علمي يستطيع تقرير غاية خلقية اذا ما تخلى عن مبدأ تواقف الوسيلة والغاية. وقد يؤمن ماركسي ما باخلاص أن الصراع الطبقي هو قانون التطور الاجتماعي ولكننا اذا صرفنا النظر عن حقيقة كون الاعتقاد يغلق الأبواب في وجه أي تمحيص أبعد للتاريخ ـ تماماً كالتأكيد بأن قوانين نيوتن هي القوانين النهائية للفيزياء تمنع أي بحث آخر في القوانين الفيزيائية ـ فان هذا لا يعني صحة ذلك ، حتى لو كانت قوانين التاريخ العلمية هي الوسيلة للهدف الأخلاقي لتحرير الجنس البشري. ذلك ان مثل هذه الوسيلة يجب ألا يتوصل اليها بطريق الاستنتاج، من قانون ما، وإنما بطريق تمحيص العلاقات المباشرة للوسائل والنتائج، اي تمحيص العلاقات المباشرة للوسائل والنتائج، الذي يوجد فيه بحث حر غير متعصب للوسيلة التي يمكن بواسطتها تحقيق هدف تحرير الجنس البشري.

ونريد هنا ان نضيف اعتبارا واحدا آخر للصراع الطبقي كوسيلة. فهناك عدد

من الطرق المختلفة - كما افترض - التي يمكن بواسطتها للصراع الطبقي ان يتحقق، فكيف يمكن ان نختار من بين هذه الطرق المختلفة، إلا عن طريق تمحيص نتائجه بالنسبة لهدف تحرير الجنس البشري ؟ ان الاعتقاد بأن قانون التاريخ يحدد الطريق الذي يمكن أن يحقق النضال يبدو ميالا نحو تكريس متعصب، لا بل تكريس صوفي لاستخدام طرق معينة لتحقيق الصراع الطبقي واستبعاد جميع الطرق الأخرى. ولست أرغب في الخروج خارج المسألة النظرية لتواقف الوسائل والغايات إلا انه من الواضح ان الطريق الذي سلكته الثورة في الاتحاد السوفيتي يصبح أشد وضوحاً، عندما نلاحظ بأن الوسائل قد استنتجت من قانون علمي مفترض، بدلا من البحث عنها وتبينها على أساس علاقتها بالغاية الخلقية لتحرير الجنس البشري .

ان النتيجة الوحيدة التي استطيع الوصول اليها هي بتجنب نوع واحد من الاطلاقية الى نوع آخر من الاطلاقية. ويبدو ان هناك تحولا عجيباً بين الماركسيين الأرثوذكس، تحولا عن الامتثال للمثل العليا الاشتراكية، والطرق العلمية لتحقيقها (علمية بمعنى انها تعتمد على العلاقات الموضوعية بين الوسائل والنتائج، الى الصراع الطبقي كقانون للتغيير التارخي. ان الاستنتاج الذي يعتمد على الوسائل والمواقف من هذا القانون كشيء اساسي، يجعل جميع المسائل الخلقية، اي جميع مسائل الغاية المتوخاة، لا معنى لها، فان نكون علميين بالنسبة للغايات، لا يعني ان نستخلصها من القوانين، سواء أكانت قوانين طبيعية او اجتماعية. ان الماركسية الأرثوذكسية تشارك الدينية الأرثوذكسية والمثالية التقليدية، الاعتقاد بأن الغايات البشرية محبوكة بنسيج وببنية الوجود - وهذه فكرة ربما كانت موروثة عن أصولها الهيغيلية .

مدينة نيويورك ٣ تموز ١٩٣٨

جون ديوي



الأخلاق الليبرالية
المناظرة بين جون ديوي وليون تروتسكي

جورج نوفاك

إن الليبراليين الأمريكان يقتنعون بأن مواقعهم هي أمنع بكثير من مواقع الماركسيين على صعيد النظرية الأخلاقية والأخلاق العملية. وقد اقنعوا الكثيرين من الآخرين بأن هذه هي الحقيقة. وقد منح إرهاب نظام ستالين الذي وصل الى ذروته بحوادث الاعدام ضد البلاشفة القدامى في محاكمات موسكو الملفقة، منح الديمقراطيين الف فرصة لاستعراض تفوقهم الخلقي، ليس على الستالينيين فحسب، وإنما على الاشتراكيين الثوريين الذين كانوا ضحاياهم أيضاً. وقد جرت مناقشة في أواخر الثلاثينات في دوائر ثقافية مختلفة في العالم، حول مشكلة العلاقات بين الأخلاق والسياسة الى ان قضى عليها عرض الأخلاق المشبع بالدم والذي قدمته الامبريالية الرأسمالية في الحرب العالمية الثانية. وقد تعرضت الافادات التي قدمت في نيسان من عام ۱۹۳۷ من قبل لجنة التحقيق الدولية التي قامت بالتحقيق بمحاكمات موسكو في كويوكان بالمكسيك، تعرضت لهذه المسائل بشكل عابر. وبعد ذلك كتب تروتسكي مقالته «أخلاقهم وأخلاقنا» التي ظهرت في (النيو انترناشيونال) في شباط من عام ۱۹۳۸. وقد كتب الفيلسوف المربي جون ديوي رئيس اللجنة التي برأت تروتسكي من التهم الموجهة اليه؛ كتب نقدا لأفكار

تروتسكي بعنوان: الوسائل والغايات، نشر في المجلة نفسها في شهر آب من العام نفسه، وقد منع ضغط العمل تروتسكي من الرد على الحجج التي قدمها ديوي.

هذه المناظرة المبتسرة بين اثنين من طلائع المؤمنين بالبرغماتية (الذرائعية) والماركسية، كانت مجابهة مباشرة ونادرة بين وجهات النظر الأساسية للفلسفتين حول الجوانب الخلقية للعمل الاجتماعي والسياسي. ومنذ ذلك الحين لم تفقد هذه المسألة أهميتها، أو تكف عن الاستحواذ على انتباه الليبراليين والثوار خلال سبعة وعشرين عاماً. والحق أنها أشد ملاءمة اليوم منها بالأمس.

مشكلات الأخلاق

قبل ان نخوض في مسائل الطريقة التي أثيرت في هذا الصراع الايديولوجي، قد يكون من المفيد ان نستعرض المشكلات الأساسية المتعلقة بتكوين أخلاق انتقادية وعقلانية.

إن منظري الأخلاق يجابهون صعوبتين أساسيتين في الوصول الى اساس عقلاني او تفسير علمي لمستويات السلوك. وأحد هاتين الصعوبتين التغير الحاد في الأفكار المتعلقة بالصواب والخطأ خلال العصور. وسيكون من الصعب العثور على عمل انساني لم يكن عرضة للأحكام الخلقية المتعارضة، فأكل لحوم البشر ممنوع في كل مكان اليوم؛ ومع ذلك، فقد كان شائعاً في الأزمان البدائية، وتقوم بعض القبائل التي تجمع الطعام وتمارس الصيد؛ بالقضاء على المسنين. وأما اليوم فنحن نناضل من أجل إطالة أمد حياتهم.

وحرية العلاقات الجنسية التي تعتبر غير مشروعة اليوم، كانت سائدة ومسموحاً بها في الماضي. وعلى الرغم من ان الكذب يعتبر عملاً خاطئاً، فإن الأطباء يختلفون بشكل عام وبالنسبة للمسائل الحساسة، حول ما اذا كان من الصواب البوح بالحقيقة للمريض فيما يتعلق بحالته، اذا ما كان مصاباً بداء عضال. والملكية المتفاوتة الى حد كبير، وتوزيع الثروة الذي يعتبر من الأمور المسلم بصحتها في ظل الرأسمالية، كل ذلك مما يعترض عليه الهنود البدائيون.

وهذه الصور يمكن أن يضاف اليها الكثير.

وأسوأ من ذلك بالنسبة للباحثين عن الأخلاق المطلقة، هو حقيقة ان أشكال العمل نفسها التي تعتبر الخير الأقصى لمجموعة معينة من الناس، هي في الوقت نفسه الشر الأعظم بالنسبة لمجموعة أخرى. فمحطمو الاضرابات هم أبطال بالنسبة لأرباب العمل، ولكنهم أوغاد بالنسبة للعمال. وقنبلة هيروشيما ونغازاكي الذرية التي روعت آسيا، كانت مبررة من قبل القوات المتحالفة. ومع مصادرة الملكية في كوبا، تبودلت في امريكا الأحكام الخلقية المتعارضة من قبل المدافعين عن الرأسمالية والمؤمنين بالاشتراكية.

وعلى ضوء هذه الاوضاع الخلقية المتعارضة التي تتعلق بتعايش تقّيمات متناقضة لأعمال واحدة، ولنفس الذين قاموا بهذه الأعمال، أية أسس ثابتة يمكن ان نعثر عليها للتمييز بين ما هو خير وما هو شر، وبين ما هو خطأ وما هو صواب ؟ هل المستويات الخلقية الثابتة ممكنة على الاطلاق ؟ إن كل مدرسة من مدارس الأخلاق قدمت جوابها الخاص بها على هذه الأسئلة . فالديانات التقليدية تقدم تبريراً إلهيا لأخلاقها، والشرائع التي تدعو اليها تعتبر كلمة الله، كما ظهرت لموسى والمسيح ومحمد، وفسرها الحاخامون والكهنة ومسؤولون آخرون للكنيسة. ان وصايا الله أبدية ولا يجوز خرقها، لأنها جواز المرور الى الجنة والخلود.

وبالتدريج تحررت الأخلاق من مثل هذه النواحي والأوامر الدينية. ومع تقدم الحضارة وازدياد الثقافة والمعرفة العلمية، اضطر الفلاسفة لايجاد أسس عقلانية وعلمانية لأخلاقهم. وفي اللحظة التي انتزعت مرساة الأخلاق من السماء أصبح من الضروري ايجاد أسباب لوجودها وتطورها على ضوء الحاجات المتبدلة للبشر. وأخيراً قدمت المادية التاريخية أصح تفسير علمي لأصول وفحوى الشرائع الخلقية، ولدورها الاجتماعي وحدودها.

الفكرة الماركسية للأخلاق

(إن البشر يستمدون أفكارهم الخلقية، عن وعي منهم او دون وعي،

يستمدون هذه الأفكار بالحساب الأخير من العلاقات العملية التي يستند اليها وضعهم الاجتماعي من العلاقات الاقتصادية التي تحتم بالانتاج والتبادل)، هكذا يقول انجلز Engels في عرضه للنظرية الماركسية للأخلاق في كتابه (انتي دوهرينغ Anti-Duehring). إن أخلاق الحياة القبلية تختلف بالضرورة فيها يختص بقيمها الأساسية عن أخلاق المجتمعات المتمدنة، بسبب الاختلافات في علاقاتها الانتاجية وأشكال الملكية فيها. ان الوصية التي تمنع السرقة واشتهاء زوجة الجار تبدو سخيفة بالنسبة لأناس بدائيين غير مرتبطين بعادات الملكية الخاصة، سواء فيها يختص بأدوات الانتاج أو وسائل إعادة الانتاج.

لقد أوضح انجلز أن هناك ثلاثة أنماط أساسية من الأخلاق شائعة اليوم. فهناك الأخلاق المسيحية الاقطاعية التي تتمثل بالكاثوليكية افضل تمثيل، والأخلاق البرجوازية العصرية، والأخلاق البروليتارية. ومواقف هذه الأخلاق من الزواج والطلاق يمكن ان توضح الفروق في وجهات نظرهم الأخلاقية. فبالنسبة للكاثوليك، الزواج من صنع السماء ويجب ان يستمر الى الأبد. وبالنسبة للبرجوازي العادي يعتبر الزواج نتيجة لتعاقد مدني ينظمه موظفو الحكومة ويجعلونه شرعياً، او يقومون بانهائه. وبالنسبة للاشتراكي يعتبر الزواج مسألة تتم او تلغى بواسطة الارادة الحرة لذوي العلاقة.

هذه المظاهر الخلقية العامة تمثل ثلاث مراحل متتالية في تطور العلاقات الاقتصادية، وتشرح حاجات ووجهات نظر تشكلات طبقية اجتماعية مختلفة، تتعايش وتتصارع في عقول البشر وحياتهم اليوم.

لقد استنتج انجلز ان الأخلاق ومبرراتها النظرية كانت نتيجة للمجتمع في المرحلة الاقتصادية، ذلك المجتمع الذي توصل اليه في تلك الحقبة بذاتها. وما دام المجتمع المتمدن قد انتقل الى مرحلة العداء الطبقي، وما دام مستمراً في ذلك، فإن كل أخلاق هي - ويتعين ان تكون كذلك - أخلاق طبقية (انها إما ان تبرر سيطرة ومصالح الطبقة الحاكمة، وإما ان تمثل، عندما يصبح المضطهدون أقوياء

بما فيه الكفاية، الثورة على هذه السيطرة ومصالح المضطهدين في المستقبل)، وهكذا فإن تفسيره المادي لتبدلات واتساع الأحكام الخلقية يقدم التبرير لأخلاق جديدة وأسمى.

الموقف الأخلاقي للبرغماتية

يعتبر الذرائعيون انفسهم اختصاصيين في مشكلات الأخلاق. ومن جهة أخرى فإن النظرية الأخلاقية هي بديلهم عن الديانة التقليدية، كما انها تمثل وسيلتهم الرئيسية للدفاع والهجوم على الموقف المادي من المشكلات الاجتماعية. إن الذرائعيين لا يعتمدون على أية (حقائق مطلقة) تحدد مستوياتهم الخلقية، فهم يرون ان هذه (الحقائق المطلقة) قد هزمت الى غير رجعة بواسطة نظرية التطور، وبفعل المعرفة الحديثة. فعلى اية أسس اذا يمكن ان ندعو لممارسة اية فضائل ونبرر ذلك؟ إن هذه الفضائل ليست خيرة في حد ذاتها، او منزلة كالوصايا العشر، او تفرضها المحرمات. ان قيمة أي عمل لجون ديوي، قيمة اي أسلوب للسلوك، اية سياسة، يجب ان يحكم عليها بنتائجها الحقيقية فقط. ومما يؤخذ بعين الاعتبار ليس نوايا ودوافع وأهداف الأفراد، وإنما النتائج المحضة الناتجة عن أعمال الناس. إن ديوي يرى في الأخلاق (فعالية ظاهرة لها نتائج بدلا من كونها مجرد صفة شخصية داخلية) (البحث عن يقين، ص ٦). وهذا المقياس الموضوعي قد فصل ديوي عن جميع أولئك البشر شبه المتدينين والعاطفيين الذين تعتمد القيمة الخلقية لديهم على (طيبة القلب).

فأية أعمال تميل الى زيادة الثروة وتوزيعها بالتساوي، وزيادة الديمقراطية والحرية، وترسيخ العلاقات السلمية، وتفتح فرصاً أكثر لعدد أكبر من الناس، وتشحذ حساسياتهم، وتزيد من إدراكهم الخ.، هي أعمال خيرة. فإذا ما كانت لديها نتائج معاكسة وجب إدانتها واعتبارها غير أخلاقية.

وعلى ذلك فالاستثمار خطأ لأنه يسرق ويقسم ويضطهد الناس، ويجب ان نجعل المضطهدين يعترفون بذلك، وان يصلحوا أنفسهم او يصلحهم المجتمع.

والقوة خطأ او انها ضارة أكثر منها نافعة بالنسبة لنتائجها. ولهذا فمن الواجب عدم اللجوء إليها او استخدامها، إلا في حال الضرورة القصوى. والصراع الطبقي خطأ ويجب أن يستعاض عنه بالانسجام والتعاون الطبقي.

مثل هذا المبدأ ينم عن قدر كبير من الارادة الطيبة ويشهد بطيبة الأخلاقي الذرائعي، إلا ان الذرائعيين لا يقدمون إدراكا علمياً للوضع الحقيقي الذي خلق هذه الصراعات الاجتماعية، كما أنهم لا يفصحون عن حل عملي لها. فمن السهل ان نحمل على الأثرياء وان نقول بأن على اصحاب الامتيازات ان ينظروا في أمر حاجات الفقراء، وان يتخذوا الخطوات اللازمة لمعونتهم. لقد بشر الدين بمثل هذه المواعظ ومارس مثل هذا الاحسان طيلة قرون عديدة دون ان يستأصل الشروط التي تمخض عنها عدم المساواة.

وهناك فرق شاسع بين مثل هذه الخلقنة المجردة، وبين الاستقصاء العلمي الصحيح للأخلاق وتطورها. إن الموقف العلمي من الأخلاق يجب ألا يكون قادرا على إخبارنا بأن الاستثمار شر فحسب، وإنما ان يخبرنا بماذا يتعين على الاشياء ان تسلك ذلك السبيل من الهداية، وان يوضح، على هذا الأساس كيف يمكن إزالة شرور الاستثمار. تلك المشكلة ليست فردية وإنما هي مشكلة اجتماعية جمعية.

إن أعلى هدف لأية أخلاق انسانية هي إدراك كل فرد لنفسه وتطويره لشخصيته الانسانية ومحاولة إكمالها. لقد آمن ديوي، وهو محق في ذلك، ان السلوك الفردي خاضع عنوة للعمل الاجتماعي؛ وان الأخلاق مرتبطة ارتباطا وثيقاً بالشروط الاجتماعية وبالسلوك ونتائجه. لقد كان على استعداد لعرض المسألة والدخول في نزاع مع الماركسية دفاعاً عن وجهات نظره في تلك الحلبة المتقدمة.

الوسائل والغايات الأخلاقية

إن أول المسائل التي عالجها ديوي هي مسألة العلاقة الشائكة بين الوسائل والغايات في الأخلاق. فالعديد من أصحاب الاخلاق الليبرالية يعتقدون بأن مثل

هذا المبدأ هو أساس لكل الشرور. وعلى ذلك فربما جاء اتفاق ديوي مع تروتسكي بأن الغاية تبرر الوسيلة بمثابة صدمة مفاجئة لهم. ان الغاية والوسيلة متوافقتان.

إلا أن كلا منهما، كما يقول ديوي، يمكن ان يبرر بما يسمى بـ (إراحة الضمير أو الحس الخلقي، أو بعض أشكال الحقائق الأبدية). إنها يمكن ان تبرر - كما يعلن - ليس بنتائجها المباشرة(اؤمن ان الغاية من ناحية نتائجها تقدم الأساس الوحيد للأفكار والعمل الخلقي، وبذلك تقدم التبرير الوحيد الذي يمكن ايجاده للوسائل المستخدمة). لا شيء آخر يمكن أن يجعل الوسائل خيرة أو سيئة باستثناء نتيجة استخدامها.

لقد بين تروتسكي ان أعلى غايات العمل الاشتراكي هي زيادة سيطرة الانسان على الطبيعة، والغاء سيطرة الانسان على الانسان (القهر الاجتماعي) نتيجة لذلك. وقد اعتبر ديوي ايضا ان هذه الاهداف هي الأشد جدارة من سواها. ويوضح تروتسكي اكثر من ذلك ان جميع هذه الوسائل التي أسهمت في تحقيق هذه الأهداف، مبررة أخلاقيا. وحتى الآن لا يوجد عدم اتفاق بين الماركسي والذرائعي.

فقد افترق موقف كل منهما عن الآخر، عندما وضعت مسائل المؤسسات والطرق التي يمكن بها تحقيق هذه الأهداف، موضع الدراسة والاعتبار. ولقد أكد تروتسكي ان القوة الوحيدة في المجتمع الحديث القادرة على القيام بهذا العمل، هي الطبقة العاملة المنظمة. والطريقة الوحيدة التي يمكن ان يقضي بها العامل على الظلم والاضطهاد والسيطرة سيطرة تامة على الطبيعة، هي تطوير نضاله حتى النهاية، ضد المنتفعين الرأسماليين ورافعي لواء الامتيازات الاقتصادية.

وهنا يختلف ديوي مع تروتسكي بشدة. فهو يرى ان كلا من هاتين الفكرتين خاطىء. فتروتسكي ليس مقتنعا في وضع المهام الأساسية بتحديد البناء الاجتماعي في زماننا، في يد العمال. إن هذه المسألة ذات أهمية عامة تتجاوز أية

مصالح طبقية خاصة، جميع الناس من ذوي الارادة الطيبة بدءا من أعلى طبقات المجتمع وحتى أخفضها، يجب ان يستنفروا لضمان السيطرة الجمعية على الطبيعة والاقتصاد.

ويزعم ديوي ايضا ان تروتسكي قد أخطأ في اعتماده الكلي على قمع الصراع الطبقي كوسيلة للوصول الى الأهداف المرغوب فيها. والطرق الأخرى غير الصدام بين الرأسماليين والعمال ليست جديدة فحسب، وإنما ستؤدي الى نتائج أفضل. وهكذا فإن خلافاتهم حول النظرية الخلقية تركزت حول عدم اتفاقهم على الوسائل الكفيلة بتحقيق التقدم الاجتماعي. ومن حيث الجوهر، كان الخلاف يتركز حول الطريقة: طريقة التفكير وطريقة السلوك.

وقد قام ديوي عمدا برفع خلافاتهما الى مستوى الطريقة المنطقية والعلمية. فهو يقول بأن طريقة تروتسكي في التفكير غير صحيحة، لأنه يستنتج الوسيلة (الصراع الطبقي) من قراءته (أو خطأ قراءته) لمجرى التطور الاجتماعي. وبوصفه للصراع الطبقي على نحو غير مشروع، قانوناً مطلقاً وأسمى للتاريخ، أخضع تروتسكي في الواقع، أخضع الغايات لوسائل معينة بدلاً من أن يسمح للغايات بأن تحدد وسائلها. فكيف كان يتعين على تروتسكي ان يجد الوسائل؟ يقول ديوي ان ذلك يمكن ان يتم بـ (تمحيص النتائج المباشرة لنفعها). وهذا هو الموقف العلمي الصحيح والوحيد الذي يأخذ بعين الاعتبار التواقف الحقيقي لهذين العاملين.

ومقابل الاستنتاج، أي استنباط نتائج معينة من قواعد عامة، وضع ديوي عملية الاستقراء، كوسيلة للتوصل الى تعميمات على أساس الحوادث المكررة او المطابقة.

إن هذا الطباق غير موجود، فهل يستمد تروتسكي وسائله بشكل تعسفي كما يفهم من ديوي، بواسطة عمليات الاستنتاج وحدها؟ الواقع ان تروتسكي قد قـوّم الوسائل بالاشارة الى قوانين وحاجات الصراع الطبقي. ومع ذلك، فإن

هذه القوانين لم تخلق بحرية وتفرض من قبل الماركسيين على المجتمع؛ لقد استمدت من دراسة شاملة قبلية للعمليات الاجتماعية خلال عدد من الأجيال وبوسائل علمية محضة. إن قوانين الصراع الطبقي هي قبل كل شيء تعميمات تجريبية تطورت من تحليل الحقائق التي يقدمها تاريخ الحضارة، بما في ذلك التاريخ الأمريكي.

الوضع المنطقي للصراع الطبقي

إن الترتيب الرائع لمواد الواقع المتعلقة بالصراع الطبقي ودوره الحاسم في التاريخ، هذا الترتيب الذي استمدت منه هذه القوانين، قد لوحظ وسجل قبل وقت طويل من ظهور ماركس على المسرح. فعلى سبيل المثال، قام العديد من الكتاب والمؤرخين الاغريق القدماء (ثيوكيديدس، ارسطو وافلاطون) بملاحظة ووصف هذا الترتيب. وما فعله الماديون التاريخيون هو ان أعطوا اول تفسير كاف وصحيح للحوادث. فقد شرحوا كيف نشأت الطبقات خلال نمو القوى المنتجة، وانقسام العمل الاجتماعي ووجود فائض كبير للانتاج، ولماذا تركزت الصراعات الطبقية حول الاستيلاء على هذا الفائض المتزايد في الثروة.

أليس ذلك أكثر من نظرية حول التطور الاجتماعي؟ ذلكم هو ما يود ديوي، الوسلي ان يقوله، غير ان الصراع الطبقي كان له دور مختلف عن الدور المبهم الذي ينسبه الليبراليون له. انه اكثر من مجرد امكانية او فرصة أو توافر للحوادث في مجتمع متمدن. إنه ضرورة، إنه يقين، وهو يتعمق حسب مجموعة من القوانين تشكل العوامل الأساسية التي تنشأ عن أعمق تركيب للمجتمع الطبقي. وهذا ينطبق على جميع المجتمعات الطبقية بصرف النظر عن مستويات التطور فيها، وبصرف النظر عن عوامل محدودة أخرى*.

* هذه الحقيقة تأكدت قبل وقت قصير لدى بعض الكهنة العمال في فرنسا، الذين أرسلتهم الكنيسة للتغلغل بين صفوف العمال ومجابهة هرطقة الماركسية المادية والملحدة. فقد كتبوا في رسالة موجهة للكردينال فيلتن Feltin بتاريخ الخامس من تشرين الأول **١٩٥٣** قائلين: (لقد علمنا ان الصراع الطبقي مجرد مبدأ يمكن للفرد القبول به او رفضه، وانما هو حقيقة شرسة فرضت على الطبقة العاملة). ونظرا لرفضهم التراجع، طردوا من سلك الكهنوت.

فمتى اكتشفت القوانين التي تتحكم بالصراع الطبقي وتشكلت ونسقت، أمكن تطبيقها كما هو الأمر بالنسبة لجميع القوانين العلمية الأخرى. وقد مكنت الباحثين من التغلغل أعمق فأعمق في بنية وحركات المجتمع الداخلية، وفي تجمعاته وشخصياته القيادية، وبالتالي توجيه تطوره تحت ظروف معينة، الى حد معين.

طبيعة التصورات والقوانين

إن الوسليين من أمثال ديوي لديهم مع ذلك، تصوّر مسبق لا يهين، حتى ضد أشد الأحكام المسبقة ثباتا. وهذا النفور والاشمئزاز هو الأساس الرئيسي لنظريتهم في المعرفة التي تشتمل على تناقض في صلبها. ويصر الوسليون على وجـود. تبدل عالمي في جميع الأشياء؛ ومع ذلك، فإن الأفكار بالنسبة لهم ذات جوهر سكوني. والأفكار لا تفقد طبيعتها الافتراضية الموروثة، ولا يمكن ان تتبدل فعلا الى تعيينات مهما كان مجرى أو نتائج التطور العلمي والاجتماعي.

هذا الافتراض ليس تجريبيا او عقلانيا. والواقع ان العديد من الأفكار التي تبدأ كفرضيات تتحول الى شيء مختلف كليا نتيجة للاستقصاء العلمي والممارسة، وتصبح حقائق مجربة وقوانين علمية. فنظرية وجود الذرات والبنية النووية الداخلية للمادة، كانت مجرد تخمين ذكي، مجرد حدس عندما فكر بها الاغريق القدماء. اما الآن فقد أصبحت حقيقة ناجزة يمكن ان نستمد منها أشد النتائج انفجارا. ومع ذلك، فالذرة لم تكن بالنسبة لديوي، مثله في ذلك مثل الوضعي ارنست ماخ Ernest Mach حقيقة، وإنما هي مجرد (فكرة عملية) (انظر في كتابه المنطق ص ١٥٣ والبحث عن يقين ص ١١٩ - ١٣١).

لقد اعترض ديوي على قوانين الصراع الطبقي واعتبر ان هذه القوانين لا تمتلك أساسا متيناً لأنها (تحكم سلفا على خصائص وأنواع الظواهر المباشرة التي تتعلق بها خطط العمل المقترحة). غير أنها لا تختلف عن قوانين النشاط الذري أو القوانين الفيزيائية الأخرى.

إن التعميمات الفكرية تظل بالنسبة للذرائعي موضع اختبار دائم. ولا يمكن لأي قاض ان يتوصل الى رأي حاسم حول حقيقتها أو زيفها مهما كانت مبررة. لماذا؟ لأن العناصر غير الحاسمة لا يمكن استئصالها من الواقع كلياً.

وبالنسبة للذرائعيين يتعين ان يجري تقديم كل فكرة او تصور من جديد، وأن تمحص كل نتيجة من القمة الى القاعدة تتعلق بكل وضع جديد. وتكرار الفكرة للمرة الألف ليست له طبيعة مختلفة نوعياً عن حدوث الفكرة للمرة الأولى. ان الوسْليين يتحدثون وكأن من الممكن والضروري للناس، البدء من جديد لدى كل مناسبة، ومجابهة العالم الذي يحيط بهم صفر اليدين وفارغي الرؤوس.

إن هذا بالضرورة إنكار لجميع المعرفة المكتسبة، والطرق العلمية، وحتى لنتائج الاستقراء، ولا أحد سوى الرضع يتصرف إزاء العالم ويعالج المشكلات التي يطرحها دون استخدام المصادر المتراكمة للتطور الاجتماعي، بما في ذلك صندوق الأحكام المستمدة من التجربة التاريخية والدراسة المباشرة للواقع.

هذه ليست مجرد مجموعة تأملات فهي تشتمل بكليتها على معلومات محققة وتعميمات مدققة، غير ان مضمون الأفكار يظل غير حاسم جوهريا ونظريا دائما في أعين الوسليين الأصلاء الذين يرون (أن الأفكار لا تفصح عن الواقع).

إن تقدم العلم يؤدي الى الحصول على معرفة القوى الحقيقية التي تحدد إنتاج الظواهر وتشكلها اللاحق في قوانين. لقد بالغ ديوي مبالغة كبرى في (تقييم) جانب التردد في الواقع وعدم اليقين في المعرفة الحقيقية. كما انه قلّل من تقديره ونُحّي نسبة لأهدافه الشخصية، وكان يعرف هذا مسبقاً، وقد تعرف على الحقائق المؤكدة عن المواضيع الحقيقية.

(كل خطوة سياسية هي بشكل منطقي، يتعين ان تكون بشكل مباشر، من طبيعة تجربة ما) هكذا يقول بإصرار في كتابه (المنطق) (٥٠٨). إن هذا التوكيد الكاسح ليس صحيحاً منطقياً، كما انه ليس كاملاً في الحقيقة. إنه نصف حقيقة خطرة ومضللة.

وكون سياسة ما، جوهرياً أو عرضياً فحسب (من طبيعة تجربة ما) يعتمد على الظروف المميزة لموقف ما، وعلى طبيعة الاقتراح المطروح. وفي معظم الحالات هناك إجراء لا مناص منه من عدم الحسم والتردد الذي يمنح رد الفعل عليه، شخصية مشكوك فيها. غير ان هذا الاجراء الذي ينطوي على عدم اليقين وعلى المصادفة هو متنوع كمّا وكيفا. ان قيمة النظرية العلمية وهدف الممارسة العقلانية هما تخفيض هذا الحد الى الحد الأدنى.

ولنأخذ مثلين من الممارسة الصناعية. إن عامل المخرطة في معمل ما يستطيع ان يعرف مقدما ما اذا كانت القاطعة ألْيَن بكثير من ان تستطيع قطع فولاذ ذي صلابة معينة؛ وهو لن يستخدم فولاذا أشد ليونة، كما لن يستخدم ملقطاً خشبياً بطبيعة الحال لتحقيق هذا الغرض. وبهذه الحالة فإن الهدف ـ صنع معدن بشكل وحجم معين ـ والحقيقة المادية ـ وصلابة المعدن ـ يحددان بشكل متبادل وأمام العين، إيجاباً وسلباً، نوع الوسيلة لتحقيق النتاج المطلوب.

فلماذا لا يمكن للقواعد نفسها ان تنطبق على العلاقات الصناعية كما تنطبق على أعمال المخزن، أليس بوسع العامل نفسه ان يعرف مقدما كيف سيتصرف رب عمله عندما يطلب هو وزملاؤه زيادة في الأجور. إن رب العمل حقيقة اجتماعية من نوع معين، ومصالحه المادية تمنحه درجة معينة من الصلابة، تمنحه مقاومة محددة لارتفاع تكاليف الانتاج لديه وانخفاض أرباحه. ولتحقيق هذه الأهداف فإن عماله يحتاجون الى أدوات اجتماعية من نوع معين، أدوات قوية الى الحد الذي يكفي للتغلب على تلك المقاومة. وهذا هو السبب في انهم قد أسسوا الاتحادات ونظموا الاضرابات بدلاً من الاعتماد على رفع العرائض بشكل فردي.

وهنا نصل الى لب المشكلة، إن كل مفاوضة حول الأجور ليست ضرورية، ويجب ألا تكون تجربة جديدة كلياً ولها عوامل غير معروفة مهما كانت حالات عدم اليقين بالنسبة لأي وضع مطروح. لقد كان العمال وأرباب العمل يتعاملون فيما بينهم خلال عشرات السنين وفي جميع أنحاء العالم، وباستطاعة قيادة اتحاد ذات

خبرة جنبا الى جنب مع عضوية نيرة ان تدخل في مفاوضات جماعية وهي مسلحة بمعرفة طبيعة أرباب العمل، تلك المعرفة المستمدة من العلم الاجتماعي والتجربة اليومية، الأمر الذي يساعدها على التصدي للمعارضة تجاه مطالب العمال العادلة.

فإذا ما كانت كل مفاوضات او كل عمل من اعمال الانتاج يجب ان يعامل نظريا او عمليا على اساس انه تجريبي بشكل إجمالي، كما يطالب ديوي، فإنه لا يمكن ان نعتبر اية وسيلة معينة لدينا افضل بالضرورة أو أشد ملاءمة لمتطلبات النضال من وسيلة أخرى. وهذا يستبعد الاعتماد على إجراءات محققة ويترك الميدان واسعاً أمام أي ابتكار خاضع للنزوات.

مثل هذه التجريبية غير المقيدة غريبة كليا عن الاجراءات المباشرة للعلماء وعن طرق الصناعة الحديثة العادية.

إن هدف إنتاج مصنع آلي هو عدم ترك أي شيء للصدفة، بل تنظيم جميع العوامل في العملية. وتحدث الحوادث والاستثناءات في أفضل الأنظمة تنظيماً، ولكن حتى هذه الحوادث والاستثناءات يحسب حسابها مقدماً بواسطة أجهزة توضع مسبقا لاكتشافها عندما تبتعد عن الحدود المسموح بها، ولكي تعوض عنها وتصححها في الوقت الملائم. إن الأنظمة المنظمة ذاتيا هي قطعية بشكل خاص، فيما يتعلق بتعقيدات صناعية، كالمصانع النووية الذرية التي تشتمل على أعلى ألوان الاتحاد بين النظرية العلمية والانتاج.

لقد قال ديوي انه أراد ان تشمل آخر أساليب العلم والصناعة جميع المشكلات اليومية، فإذا ما حدث هذا، فإنه يتعين ان يكون حقل الفعالية بالنسبة للتجارب الاتفاقية في معظم المناطق الحيوية من الحياة الاجتماعية في ان ينخفض ويصبح هو نفسه عرضة للمراقبة. ان التجربة ضرورية لجميع مجالات النشاط، والعلم والصناعة يتعهدان هذه الحاجة بتقديم أماكن خاصة لاجراء هذه التجارب. وفي الصناعة يجري فصل العمل التجريبي في المصانع الرئيسية

والمخابر، عن الانتاج الكبير الذي يتم بواسطة أساليب للتقنية وآلات موثوق بها.

وفي الوقت الحاضر حدثت تجارب لا تعد ولا تحصى، لا بل حدثت اختبارات كثيرة، قامت بها القوى المتنازعة في حقل العلاقات الطبيعية. والنتائج الايجابية والسلبية لأساليب العمل المختلفة هذه، قد لخصتها الاشتراكية العلمية في قوانين الصراع الطبقي وبرمجتها في برامج أحزاب العمال، وهي تحمل قيمة عملية عظمى باعتبارها ترشد الى القوى الاجتماعية التقدمية في نضالها الأبعد مدى.

ومن جهة اخرى فإن وجهة النظر البرغماتية تعتمد على التعادل الشكلي بين جميع الأفكار، أكثر مما تعتمد على وضعها المادي الحقيقي. فكل فكرة تعتبر في حد ذاتها حقيقية ومفيدة وفعالة كأية فكرة أخرى، وبالطريقة ذاتها يفترض ان سوق السلع يعتمد على التعادل الشكلي بين التبادلات، كما يعتمد القانون البرجوازي على التعادل الشكلي بين جميع المواطنين أمام حدود العدالة، والديمقراطية تعتمد على التعادل بين أصوات جميع المواطنين. كل هذه الافتراضات تتناقض والوضع الحقيقي في المجتمع الرأسمالي بكل ما فيه من فقدان للعدالة الاقتصادية وتمايز بين الطبقات. إن فكرة ما ليست في الواقع خيرة قدر فكرة أخرى. فبعض الأفكار أصح من أفكار اخرى لأنها لا تعكس كلها الواقع بشكل متكافىء وبالتالي فهي لا تنطوي على التبعات نفسها عندما تستخدم لادارة وتوجيه فعالية ما.

الحتمية المتبادلة للغايات والوسائل

إن الوسائل والغايات مترابطة Interdependent بالنسبة لديوي، بيد أنه اعتقد ان كلا من هذين الاصطلاحين شرط للآخر. ولا يمكن لأحدهما ان يحدد الآخر أو ان تحدده مسبقا الشروط المادية الكافية، فأحدهما شرطي ونظري قدر الآخر.

وعلى سبيل المثال فإن الاستغلال سيء ويجب القضاء عليه، غير انه بالنسبة لديوي، يمكن استئصاله بعدد من الطرق: بواسطة الصراع الطبقي او الاتفاق الطبقي او بالمزج بين الطريقين. ان (أيا من هذه الوسائل ليس حاسماً فيما يتعلق بالهدف المرغوب فيه): أي القضاء على الاستغلال الرأسمالي. ذلكم هو وضعه

النظري المجرد.

وهذا يبدو غير متحيز على الاطلاق، ولكن عندما ندخل حيّز التطبيق ـ الذي هو الاختبار الحاسم بالنسبة لكل برغماتي ـ فإن الليبرالي ليس بغير متحيز، فهو يفضل ويختار في تسع حالات من أصل عشر الوسائل التي يتحقق فيها أقل قدر من المقاومة). وان اللجوء الى المقاومة الكبرى يأتي كآخر ملجأ دائماً؛ وهذا الانحياز ليس اتفاقيا، فموقفه ينبع من حاجة طبيعية ككائن اجتماعي، ومن مطامحه كمثقف من الطبقة الوسطى ومن غموض وجوده في وسط المعسكرات الاجتماعية المتعارضة .

وفي بعض الأحيان يتخذ الليبرالي اليساري طريق الصراع فعلا ولكن مرغماً وبفعل ضغط الظروف القاهرة، فهو يشعر ان هذا الأسلوب ينافي الواقع بطريقة ما وينافي مصالح جميع الفرقاء المعنيين بما في ذلك مصالحه هو. وأساليب الصراع الطبقي هي في الواقع منافية لمركزه الوسط حيث تتجاذبه الاتجاهات المتعارضة والعداوات بين رأس المال والعمل وبين البياض والسواد.

إن نقد ديوي الرئيسي والثاني لتروتسكي هو ان الماركسيين مطلقون في لجوئهم الى القوانين المرسومة عندما يختارون وسيلة العمل الاجتماعي. وقد ادعى ان تروتسكي لم يكن تجريديا او علميا وإنما مثالياً وذا تفكير ديني لأنه فرض أهدافه التي يرغب فيها التطور الاجتماعي،وتصرف وكأن (الأهداف الانسانية مندمجة بنسيج وتركيب الوجود).

فكم من التبرير يحمل هذا النقد ؟ إن تروتسكي كمادي لم يعتقد مطلقاً بأن الأهداف الانسانية مندمجة بوجود الطبيعة، ومع ذلك فقد أكد ان الغايات الطبقية محبوكة موضوعيــاً (في نسيج وبنية) الوجود الاجتماعي في ظل ظروف تاريخية معينة.

وقد أنكر ديوي ذلك. فالمجتمع بالنسبة اليه، لا يمتلك نسيجا وبنية محددين على هذا النحو وبحيث ان القوانين العامة المتعلقة بأهداف الطبقات يمكن ان تستخلص من تحليل التطور الاجتماعي وبالتالي تستخدم لحساب سلوكها كأساس للعمل.

فإذا لم تكن ثمة قوانين مطلقة تتحكم بنشاطات الطبقات فانه لا يمكن ان توجد وسائل ضرورية كالصراع الطبقي لتحقيق الأهداف الاجتماعية. واذا لم تكن ثمة قوانين مؤكدة ولا وسائل معتمدة فمن الذي يأخذ مكانها إذن؟ الحدوث الاختبارية، الخطط المبنية على الآمال، والجهود التجريبية، وقبل العمل يمكن للعديد من الوسائل المختلفة ولأية وسيلة بشكل رئيسي ان تحرز الغايات المتوخاة. فإذا لم تكن تعلم الى اين تذهب او من الذي تقف ضده حقاً فإنه من المفروض ان أي طريق سوف يصل بك الى هناك.

وعلى أي أساس إذن يجب اختيار طريق معينة من بين الطرق الأخرى؟ بالطبع يعترف ديوي بأن المعرفة والتجربة السابقتين ستستخدمان في عملية الانتقاء، ولكنهما ليستا كافيتين على الاطلاق وقيمتهما تتجلى فقط من الفائدة التي تنبع منهما، ولسوء الحظ فإن النتائج تأتي فقط بعد اختيار الخطوات اللازمة.

فلماذا لا يمكن إذن ان تدير عملية الاختيار وتحددها الدروس المستفادة من النتائج المتراكمة من الماضي؟ وعلى الرغم من ان ديوي لا يستبعد ذلك فهو لا يعطي هذا الأمر الوزن الحازم. فبالنسبة للبرغماتي ليس أي مقدار من القدر محدداً ونهائياً. فهو يأتي فقط بعد الفعل وعلى أثر ذلك الفعل بعينه فحسب.

إن وجهة النظر هذه مناقضة للعقل، فهي تستهين بالحقيقة القائلة أن كل شيء تحدده بعد الحقيقة المعتمدة عليها وهي تتحول الى شيء آخر تحدده الحقيقة التالية. ولا شيء يظل بشكل مطلق في الحالة المؤقتة المحضة التي يتطلبها منطق ديوي. فعندما تتراكم عوامل قدرية مادية كافية فإن اتجاه ونتاج التطورات يمكن التنبؤ به.

هل القوانين الاجتماعية نسبية أم مطلقة ؟

فلنقارن بين منطق ديوي الخارج ـ عن هذا العالم وبين منطق الماركسية المادي الذي يتمثل للمجرى الحقيقي للتطور ووضع الأحداث.

إن كل قانون بما في ذلك أشد القوانين ضرورة وعالمية تحدده طبيعة الواقع الذي يتعامل معه وطبيعته هو كتكوين إنساني وتاريخي متطور، وهذا يعطيه شخصية نسبية مشروطة، إلا ان هذا ليس جانباً واحداً من مضمونه. فإذا ما كان القانون صحيحاً فهو مطلق بالنسبة للعمليات والظواهر التي تغطيها منطقة فعاليته.

وعلى سبيل المثال، فإن قوانين الصراع الطبقي بالنسبة للقضية موضع المناقشة تنطبق فقط ضمن شروط المجتمع الطبقي. وقبل تقسيم المجتمع البدائي الى طبقات، لم تكن هذه القوانين غير قابلة للتطبيق فحسب، وإنما لم تكن موضع تفكير أحد. ومن الطرف الآخر للعملية التاريخية ستفقد هذه القوانين مع اختفاء المجتمع الطبقي في المستقبل الاشتراكي، ستفقد تدريجياً حقل فعاليتها وتذبل حتى الجذور.

وعلى هذا، فإن هذه القوانين التي تتحكم بالعلاقات الاجتماعية نسبية ومطلقة في تطبيقها. وهذه النسبية تعتمد على المجرى المتبدل والمتناقض للتطور الاجتماعي من الجماعية البدائية، ومرورا بالمدنية حتى الاشتراكية، واطلاقيتها تعتمد على الدور المركزي الذي يلعبه تضارب المصالح الطبقية في بنية ونشاط المجتمع المتمدن .

الحتمية التاريخية لأهداف المجتمع

يوافق ديوي على ان حقائق الحياة الاجتماعية يجب ان تكون نقطة الانطلاق والأساس لأية أخلاق حقيقية مرتبطة بعمل اجتماعي فعال. وهذا يعني انه في مجتمع تتنازعه الخصومات والعداوات يجب الاعتراف بأن ثمة مطالب خلقية مختلفة ستطرح وأحكاما خلفية مختلفة ستفرض من قبل الطبقات المتصارعة. فإذا ما طرحنا هذه الحقيقة الأساسية جانباً، فإن الأخلاق الناتجة قمينة بأن تكون خيالية او

منافقة وأي سلوك ينجم وما توصي به سيقدم نتائج سيئة.

لقد أدرك ديوي ان الفعاليات الفردية هي في اطار اجتماعي اقتصادي معين، وان الأخلاق الفردية مرتبطة بتعاليم عامة للسلوك والغايات الاجتماعية بالنسبة له حاسمة في القضايا الخلقية، ولكن هل ما تفعله الشروط في الواقع وما يجدر بها ان تفعله يحددان الوسائل التي ستقدم الغايات المبتغاة؟ لقد علم ديوي بأن الذكاء المطلع أو (الذكاء الخلاق) يجب أن يتدخل ويقوم بدوره.

ودون ان نخاصم في هذا، يظل ذلك لا يجيب على السؤال العام. ما الذي يحدد كيف يتصرف الناس في هذا المجتمع، وأي لون من السلوك هو الذكي والخلاق؟ هنا تبدو العلاقات الطبقية الحقيقية وأدوارها في المجتمع الرأسمالي حاسمة.

إن أهداف وغايات الطبقات وأعضاءها وحركاتها تحددها في الواقع الحاجات والمصالح المادية، وهذا ينبع من الأدوار التي تلعبها في الانتاج الاجتماعي ودورها في الأشكال المحددة للملكية. وعلى هذا فان الهدف الجمعي للطبقة الرأسمالية في الولايات المتحدة هو الحفاظ على نظامها الاقتصادي وتوسيعه، وذلكم هو هدفها الأساسي، كما انه يحدد سلوك الأشخاص الذين ينتمون الى تلك الطبقة، كما يشكل شرطاً لحياة جميع أفراد المجتمع.

بيد ان العمال الذين ينشطون في النظام نفسه لديهم غايات مختلفة، سواء أكانوا مدركين لهذه الحقيقة كأفراد أو مدركين لها كليا. فهم مدفوعون بحاجات معاشهم وشروط العمل في ظل الرأسمالية، لأن يحاولوا وأن يلجموا استغلالهم، وعلى المدى الطويل سيضطرون لمحو مصدره: أي محو الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والتبادل. وفي هذا الصراع لديهم الحق في استخدام وسائل الصراع التي يستطيعون ابتكارها لمثل هذه الأهداف القيمة. وهذه الأسلحة تتراوح بين الحركة النقابية والاضراب، ومن التنظيم السياسي الى الثورة الاجتماعية.

والصدام بين الغايتين المتناقضتين يحدد الوسائل المستخدمة بين القوى

المتصارعة. فالحركة النقابية تثير الحركة المضادة لها، والاضراب يثير قوى تحطيم الاضراب. وعندما يواجه الحكام الرأسماليون بالعمل الثوري الجماعي ذي الأهداف الاشتراكية، يلجأون الى الدكتاتورية العسكرية او الفاشية، ويؤدي المجرى التاريخي للصراع الى المعركة الحاسمة والنهائية التي تبرز فيها إحدى الطبقات التي تشكل القطب الحاسم منتصرة على الأخرى. والماركسيون يعملون بشكل نوعي لسيادة العمال.

إن الغايات الطبقية هذه حاسمة وواضحة حتى لو لم تكن مدركة دائماً او مطروحة بدقة من قبل ممثلي رأس المال وممثلي العمال الذين يضطرون للعمل وفق الظروف السائدة لأوضاعهم الاجتماعية الاقتصادية، فيما تتطور هذه الأوضاع من مرحلة الى أخرى.

دور ليبرالية الطبقة الوسطى

ولكن ما هو الهدف التاريخي الموضوعي للطبقات الوسطى ولممثليها المثقفين من أمثال ديوي ؟ في مجال النظرية يقوم دورها على إنكار الأهمية القصوى للصراع الطبقي، وضرورته وثماره إذا ما أحسن تنظيمه وتوجيهه. وفي مجال التطبيق تدفع الطبقات الوسطى عادة الى لجم تطور الصراع الطبقي لدى الطبقة العاملة في الوقت الذي يظل فيه أعداؤها أقوياء وبلا كوابح. ان هذا الدور لبالغ الرجعية في العلم الاجتماعي والسياسة والاقتصاد والأخلاق.

وقد حقق ديوي في اختياره للوسائل وإحاطته للغايات بالغموض دورا اجتماعيا معينا كممثل فلسفي لتلك العناصر الليبرالية من الطبقة الوسطى التي تتوق لأن تصبح الوسيط الأول في الصراع الطبقي في مجتمعنا. وباختيارهم للغايات والوسائل يحقق الماركسيون الثوريون الذين تحدث اليهم تروتسكي، يحققون دورهم كأبطال للمصالح الأساسية البعيدة المدى للجماهير العاملة. إن غايات ووسائل الطرفين من حيث المبدأ والتطبيق تحددها الفعاليات والولاءات الطبقية.

لقد تنازع الكثيرون من واضعي الأخلاق الليبراليين حول فكرة انه اذا ما كانت الوسائل مبررة فقط بنفعها في تحقيق الغايات، فإن أشد أنواع التطبيق شراسة مسموح به والأبواب مفتوحة امام المخازي والشرور البروليتارية للستالينية. وقد اوضح تروتسكي وجهة نظره بقوله ان جميع الوسائل ليست مناسبة في الصراع الطبقي، باستثناء تلك التي تؤدي حقا الى تحرير الجنس البشري.

(إننا نجيب بأن الوسائل المباحة والضرورية هي فقط تلك الوسائل التي توحد البروليتارية الثورية وتملأ قلوبها بروح اللاهوادة ضد الظلم والقهر، وتعلمها احتقار الأخلاق الرسمية وأصدائها الديمقراطية، وتشبعها بضمير رسالتها التاريخية وترفع من شجاعتها وروح تضحيتها في النضال).

إن ادعاء الليبراليين البرغماتيين بأن أخلاقهم متفوقة على أخلاق الماركسيين في النظرية والتطبيق لا يثبت أمام الدحض. فأخلاقهم تفتقر إلى أساس علمي يعتد به، لأنها تتجاهل أهم عامل أساسي في تشكيل العلاقات الاجتماعية وتحريك السلوك الفردي في الحياةالحديثة: اي انقسام وصراع الطبقات. ووصاياهم الخلقية تصبح عديمة التأثير بفعل أخلاقهم في الاعتراف بواقعهم الاجتماعي، وهذا لا يعرقل سيرهم نحو دعم المثل العليا الحميدة للمساواة والتعاون والسلام الذي يطمحون إليه. فعماهم عن حقائق الحياة يساعد على تقوية الرجعية لتشتيتهم وبكبحهم لجماح قوى الصراع الأساسية ضد شرور النظام القائم ومنعه من الاتجاه الى الطريق الصحيح.

وهذا واضح في هذه الأيام عندما نجد الليبراليين ودعاة السلام يدينون (دون تميز) إرهاب العرقيين البيض ويرفضون خطوات الدفاع عن النفس التي يلجأ اليها الزنوج ضد مثل هذه الهجمات. وهذا مماثل للمركزي الأخلاقي السياسي الذي يضع العنف العدواني، الذي تسلكه واشنطن على اساس انه يعادل الحركات الثورية التي يقوم بها الشعب الكونغولي والدومينكاني والفيتنامي في نضاله المناهض للامبريالية، ولتحقيق الحرية والوحدة والاستقلال والتقدم الاجتماعي. ان مثل

هذه الأحكام الزائفة تأتي من تطبيق مثل هذه الشرائع الأخلاقية المجردة على الاوضاع التاريخية الحقيقية، بدلا من تحليل المصالح الطبقية المعينة والأهداف السياسية للأطراف المتنازعة.

إن الأخلاقية الثورية للاشتراكية العلمية فعالة وتقدمية لأنها تسلح الجماهير العاملة بذلك النوع من المطامح والقيم التي تحتاجها للتحرر، وهي تعمم وتبرهن نظرياً عن مشاعرهم بأن الهدف الذي يتوقون لتحقيقه هدف عادل، كما تفسر أهداف جهودهم وتوضح ذلك النوع من الوسيلة اللازمة لتحقيقها. وكما قال المشرع الأخلاقي القديم بكلمات بسيطة (فاننا سنكتشف الحقيقة وستجعلنا الحقيقة طلقاء).

٢٦ تموز ١٩٦٥



ثبت بالمصطلحات الرئيسية المستعملة في الكتاب

لا أخلاقية	Amoral
اطلاقية	Absolutism
عبث	Absurdity
أخلاقية حيوانية	Bestial Morality
الفكرة	The Conception
حاملو الوباء	The Carriers of infection
الحس المشترك	Common Sense
اسمنت الأخلاق	Cement of Morality
الغايات	Ends
الشوفينية	Chauvinism
مترابطة	Interdependent
تواقف	Interdependence
الفلسفة الوَسلية	Instrumentalist Philosophy
اليسوعية	Jesuitism
الخلقنة	Moralizing
القواعد الخلقية	Moral Precepts
الوسائل	Means
الحس الخلقي	Moral Sense
الأخلاق الطوباوية	Moral Effluvia
الفريسيين	Pharisees
منافق	Sycophant
الذاتي	Sugjective
دجاجلة: جمع دجال	Swindlers
التطور الاجتماعي	Social Development
طباق	Synthesis
الغنغرينا الأخلاقية	TheMoralGangrene
معرفة علمية	Scientific Knowledge
علمانية	Secular
ثوريون	Revolutionists
عقلانية	Rational
الدينيةالأرثوذكسية	OrthodoxReligionism
المثالية التقليدية	Traditiona! Idealism
النفعية	Utilitarianism
الحس الكوني المشترك	Universal Common Sense

الفهـــرس

١ـ مقدمة استهلالية ـ جورج نوفاك ٥

٢ ـ المقدمة ـ جورج نوفاك ١١

٣ ـ أخلاقهم وأخلاقنا ـ ليون تروتسكي ١٣

٤ ـ الخلقيون والمنافقون ضد الماركسية ـ ليون تروتسكي ٥٣

٥ ـ الوسائل والغايات ـ جون ديوي ٦٧

٦ ـ الأخلاق الليبرالية ـ جورج نوفاك ٧٥

ثبت بالمصطلحات الرئيسية المستعملة في الكتاب ٩٧



للمترجم

١ ـ اللصوص ـ تأليف فردريك شيللر ـ دار مكتب الحياة ـ بيروت ١٩٦٢ ـ نفدت الطبعة.

٢ ـ زواج الحب ـ تأليف ماري ستوبس ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ١٩٦٣ ـ الطبعة الخامسة ١٩٧٤.

٣ ـ هيلين ـ تأليف فيكي باوم ـ مؤسسة النوري ـ دمشق ١٩٦٣ ـ نفدت الطبعة.

٤ ـ في التربية ـ تأليف برتراند رسل ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٤ ـ الطبعة الثانية ١٩٨١.

٥ ـ الممارسة والنظرية البلشفية ـ تأليف برتراند رسل ـ دار الأنوار ـ بيروت ١٩٦٥ ـ نفدت الطبعة.

٦ ـ مشكلات نمو الأطفال ـ تأليف عمانويل ميلر ـ دار الأنوار ـ بيروت ١٩٦٦ ـ الطبعة الثانية : دار مكتبة الحياة ١٩٨٢.

٧ ـ التربية والنظام الاجتماعي ـ تأليف برتراند رسل ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٦ ـ الطبعة الثانية ١٩٧٨.

٨ ـ الصراع على سورية ـ تأليف باتريك سيل ـ دار الأنوار ـ بيروت ١٩٦٨ ـ

الطبعة الثانية : دار الكلمة ـ بيروت ١٩٨٠ . الطبعة الثالثة ـ دار طلاس ـ دمشق ١٩٨٤ .

٩ ـ هل للانسان مستقبل ـ تأليف برتراند رسل ـ دار دمشق للنشر ـ دمشق ١٩٦٩ ـ نفدت الطبعة . الطبعة الثانية ـ دار المسيرة ـ بيروت ١٩٨٣ .

١٠ ـ أخلاقهم وأخلاقنا ـ تأليف ليون تروتسكي ـ جون ديوي ـ جورج نوفاك ـ الطبعة الأولى : دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٤ .

١١ ـ علم النفس الديني ـ تأليف سيريل بيرت ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٤ ـ

١٢ ـ مثل عليا سياسية ـ تأليف برتراند رسل ـ دار دمشق للنشر . دمشق ١٩٨٠ .

١٣ ـ معنى التحليل النفسي ـ تأليف أرنست جونز ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٨٠ .

١٤ ـ الفوز بالسعادة ـ تأليف برتراند رسل ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٨٠ .

١٥ ـ من القصص العالمي ـ تأليف تولستوي ، دوستويفسكي ، غوغول ، شيللر ، جالزورذي ، بابيني ، توربيه ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨١ .

١٦ ـ جزيرة الكنز ـ تأليف روبرت ستيفنسون ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨١ .

١٧ ـ المدخل الى التاريخ الاقتصادي ـ تأليف ج . د . هـ . كول ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٨١ .

تآليــف

١ـ العلاقات المشتركة بين الرجل والمرأة ـ الطبعة الأولى ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ١٩٨٣ .

٢ ـ دراسة في البيروقراطية السورية ـ دار دمشق للنشر ـ دمشق ١٩٧٢ .

٣ ـ اقتصاديات الذهب ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٨٠

٤ ـ المرأة العربية بين التخلف والتحرر ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٠ .

٥ ـ الوطن العربي بين التخلف والتنمية ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٨١ .

٦ ـ العرب والتكنولوجيا ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨١ .

٧ ـ تحديث الوطن العربي بين الميكانيكية العقلية والميكانيكية الخرافية ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨١ .

٨ ـ مشكلات الانسان في التحليل النفسي ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٢ .

٩ ـ الوعي العلمي ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٢ .

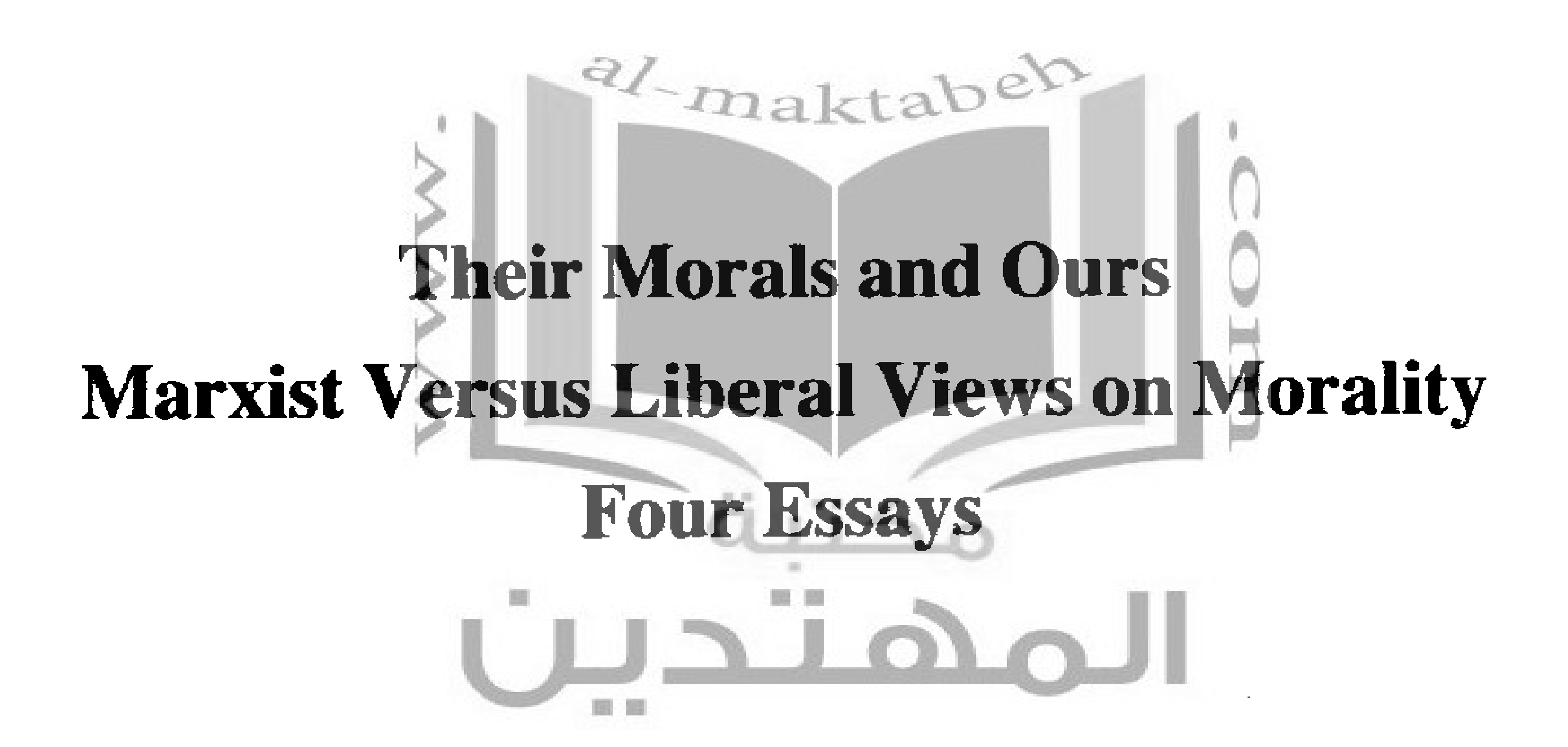
١٠ ـ العرب والحضارة العلمية الحديثة ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٢ .

١١ ـ تحليل مائة حالة نفسية ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٣ .

١٢ ـ العلاقة المتبادلة بين العبقرية والجنون ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٣ .

١٣ ـ الانسان العربي والعلم ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٣ .

١٤ ـ البطالة المقنعة في الوطن العربي ـ دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـ دمشق ١٩٨٤ .



Their Morals and Ours

Marxist Versus Liberal Views on Morality

Four Essays

by

Leon Trotsky

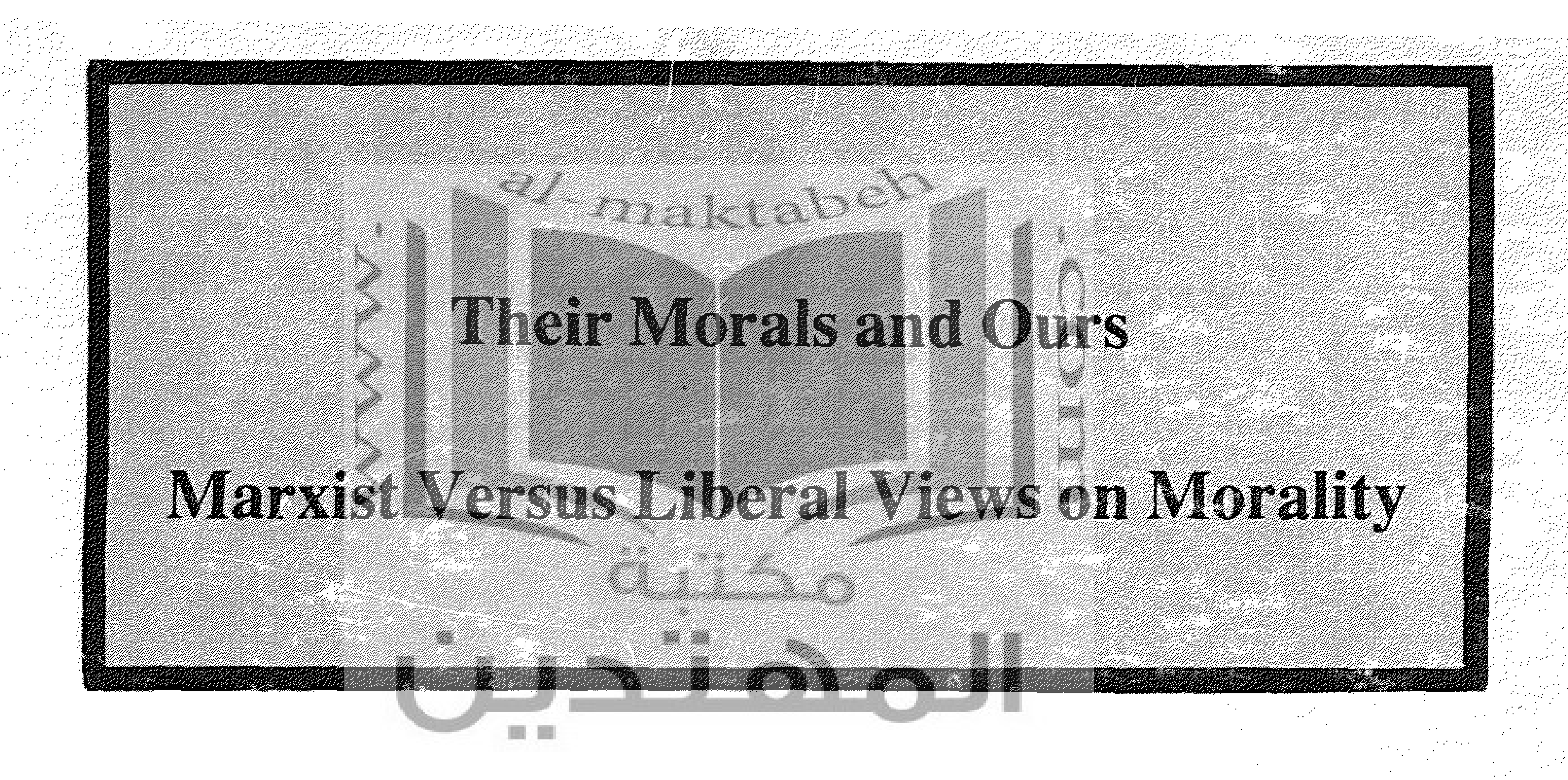
John Dewey

Georges Novack

Translated into Arabic bY
SAMIR ABDOH

Dar al-Afaq al-Jadida BEIRUT-LEBANON


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



Their Morals and Ours

Marxist Versus Liberal Views on Morality

Four Essays

by

Leon Trotsky

John Dewey

Georges Novack

Translated into Arabic bY
SAMIR ABDOH

الثمن : ١٥ ل.ل

Dar al-Afaq al-Jadida BEIRUT.